

للإمام الأكبر
الدكتور عبد الحليم محمود
شيخ الأزهر

الناشرون

دار الكتاب المصرى
القاهرة

دار الكتاب اللبنانى
بيروت

الحج

إلى بيت الله الحرام

رقم الإيداع

١٩٩٠/٧٥٧٨

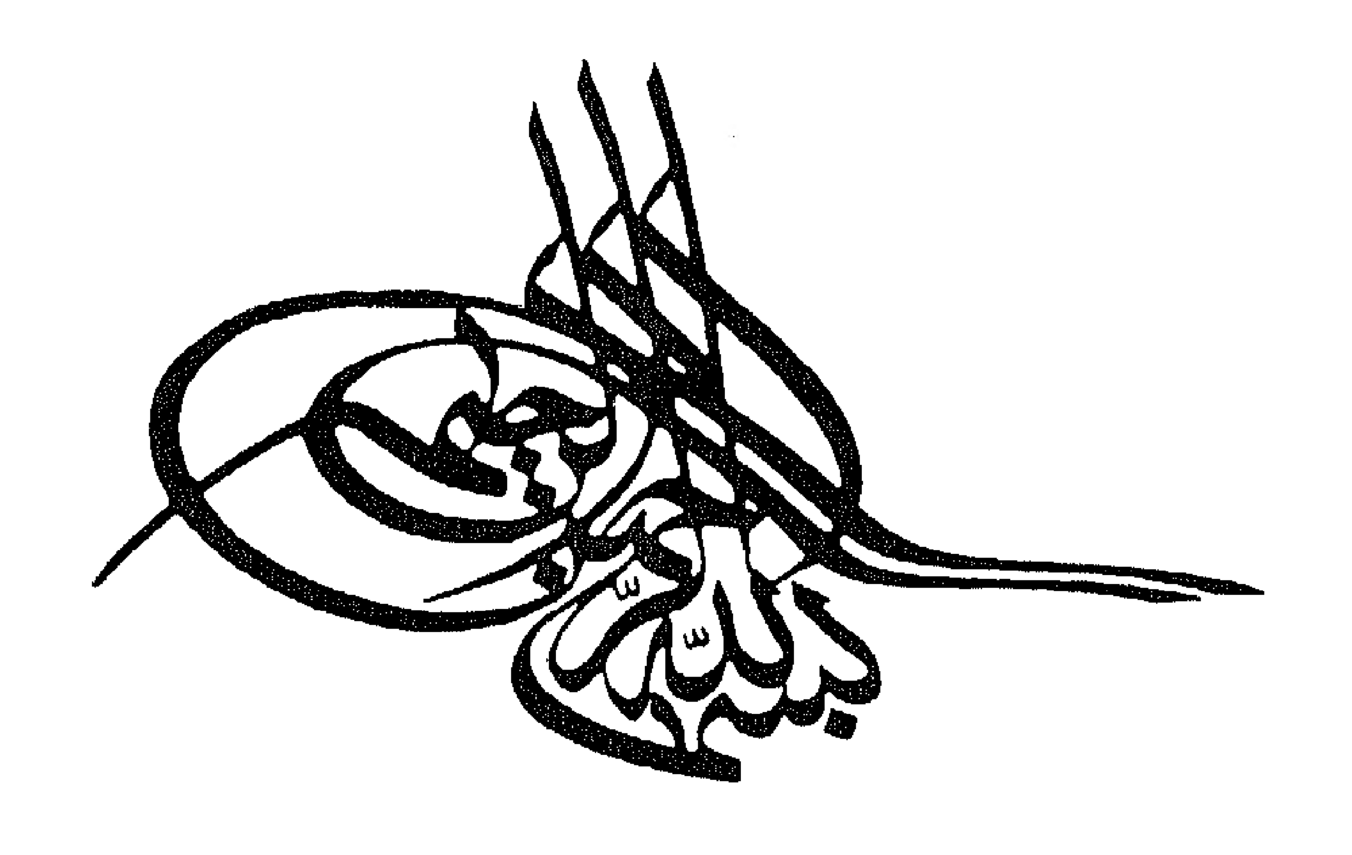
I. S. B. N. 977 - 238 - 168 - 0

دار الكتاب المصري
٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع
ت: ٣٩٢٢١٦٨/٣٩٣٤٣٠١ فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
ص.ب: ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١ - برقيا كتامصر
TELEX No: 23081 - 23381 - 22181
ATT: MR. HASSAN EL - ZEIN
FAX: (202) 3924657

دار الكتاب اللبناني
شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول
ت: ٨٦١٥٦٣ - ٨٦١٧٩٢ - ٨٦٠٧٩٢ - فاكسميلي: ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)
ص.ب: ١١/٨٣٣٠ أو ١٣٥٣٥٢ - بيروت - لبنان.
برقيا: راكلبان
TELEX: DKL 23715 LE
ATT: MISS MAY HASSAN EL - ZEIN
FAX: (9611) 351433

الطبعة الأولى
١٤١١هـ - ١٩٩١م

First Edition
1991 A.D — H 1411



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هديه إلى يوم الدين.

وبعد: فيقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ «الكهف/٥٨».

ولأنه سبحانه غفور، ولأنه رحيم، فتح أبواباً كثيرة يدخل منها طلاب المغفرة والرحمة إلى مغفرته ورحمته.

من ذلك: ما رواه الإمام مسلم بسنده: عن ابن شماسة المهري قال:

«حضرنا عمرو بن العاص، وهو في سياقه الموت، فبكى طويلاً وحول وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه! أما بشّرك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بكذا؟ أما بشرك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بكذا؟

قال:

فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل ما نعد: شهادة أن لا إلّه إلا الله،

وأن محمداً رسول الله، إني قد كنت على أطباق ثلاث[1]، لقد رأيتني وما أحد أشد بغضاً لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، مِنّي، ولا أَحَبُّ إلي أن أكون قد استمكنت[2] منه فقتلته، فلو متُّ على تلك الحال لكنت من أهل النار، فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي، صلى الله عليه وسلم، فقلت: أبسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: مالك يا عمرو؟

قال: قلت: أردت أن أشترط؟

قال: تشترط بماذا؟

قلت: أن يغفر لي.

قال: أَما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله.

وما كان أحد أَحَبّ إلي من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولا أجلّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سئلت أنْ أصفه ما أطقت، لأني لم أكن أملأ عيني منه: «ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة».

وعن الحج خاصة، يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيما رواه الشيخان وغيرهما:

«من حج فلم يرفث ولم يفسق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

وعن عبد الله بن مسعود، فيما رواه الترمذي وغيره ـ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(١) أحوال.
(٢) تَمَكَّنْتُ.

«تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير[1] خبث الحديد، والذهب، والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة».

وعن جابر، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«الحجاج والعمار وفد الله: دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم».

الحج إذن من كبريات الوسائل التي يصل الإنسان عن طريقها إلى رحمة الله ومغفرته.

ولكن أي حج.

إن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2].

والآية الكريمة تنهي الحاج عن أمور ثلاثة:

أولها: الرفث، يقول ابن كثير: «فلا رفث» أي من أحرم بالحج أو العمرة فليتجنب الرفث، وهو الجماع، كما قال تعالى:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ﴾ «البقرة/١٨٧».

وكذلك يحرم تعاطي دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك، وكذلك التكلم به بحضرة النساء، روى ابن جرير بسنده أن عبد الله بن

---

(١) المنفاخ الذي ينفخ به الحداد.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

عمر كان يقول: «الرفث إتيان النساء، والتكلم بذلك للرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم»(١).

وثانيها: الفسوق: وعنه يقول ابن عمر:

«الفسوق ما أصيب من معاصي الله صيدا أو غيره».

وروى ابن وهب بسنده، عن ابن عمر، قال: «الفسوق إتيان معاصي الله في الحرم».

وقال آخرون: الفسوق ها هنا السباب، قاله ابن عباس، وابن عمر، وغيرهم من الصحابة والتابعين.

وقد يتمسك لهؤلاء بما ثبت في الصحيح: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر».

ولهذا رواه ها هنا الخبر أبو محمد بن أبي حاتم، من حديث سفيان الثوري، عن زبيد، عن أبي وائل عن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر..»..

وما من شك في أن الفسوق هو كل هذه المعاني، ومن الواضح أن كل معنى منها لا يتعارض مع المعنى الآخر.

---

(١) ويقول صاحب الترغيب: الرفث بفتح الراء والفاء جميعاً. روي عن ابن عباس أنه قال: الرفث: ما روجع به النساء، وقال الأزهري: الرفث كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة. قال الحافظ «المنذري» الرفث: يطلق ويراد به الجماع، ويطلق ويراد به الفحش، ويطلق ويراد به خطاب الرجل المرأة فيما يتعلق بالجماع، وقد نقل في معنى الحديث كل واحد من هذه الثلاثة عن جماعة من العلماء، وإننا نرى أن الرفث هو كل هذه المعاني.

وثالثها: الجدال وهو كما قال ابن عباس: المراء في الحج.

وعن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ «البقرة/١٩٨» قال: أن تماري صاحبك حتى تغضبه.

ولقد سئل ان عباس عن الجدال قال: المراء: «تماري صاحبك حتى تغضبه».

وعن نافع، عن ابن عمر قال: «الجدال في الحج: السباب والمنازعة».

والجدال في الوضع الشامل هو كل هذه المعاني. وترشد الآية الكريمة ـ في صورة تتضمن التوجيه والتشجيع والحث على عمل الخير ـ قائلة ﴿وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ «البقرة ١٩٨».

أي: ويؤتى فاعله جزاء ما قدمت يداه من معروف.

وتأمر الآية الكريمة بالتزود: ﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾.. ثم تقول:

﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾. قال العوفي: عن ابن عباس:

«كان أناس يخرجون من أهليهم، ليست معهم أزودة، يقولون: نحج بيت الله ولا يطعمنا؟. فقال الله تعالى: ﴿تزودوا ما يكف وجوهكم عن الناس﴾.

وروى ابن أبي حاتم بسنده، عن عكرمة أن ناساً كانوا يحجون بغير زاد، فأنزل الله: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

وعن ابن عباس قال: كان أهل المن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون. فأنزل الله: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

وقوله: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾.

يقول الإمام ابن كثير:

لما أمرهم سبحانه بالزاد للسفر في الدنيا:

ارشدهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى إليها، كما قال: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ «الأعراف/٢٦ :

لما ذكر اللباس الحي، نبه: مرشداً إلى اللباس المعنوي وهو الخشوع والطاعة والتقوى، وذكر أنه خير من هذا وأنفع.

قال عطاء الخراساني في قوله: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ يعني زاد الآخرة.

وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني بسنده عن جرير بن عبد الله عن النبي ﷺ، قال:

«من يتزود في الدنيا ينفعه في الآخرة».

﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ البقرة/١٩٧».

يقول: ﴿واتقوا عقابي ونكالي وعذابي لمن خالفني ولم يأتمر بأمري، يا ذوي العقول والأفهام﴾.

ونعود فنتساءل: كيف يكون الحج الذي يخرج الإنسان منه مطهراً من الذنوب كيوم ولدته أمه؟ كيف يكون الحج المبرور؟

إن هذا الكتاب محاولة لبيان هدى الله ورسوله في ذلك، والله نرجو أن ينفع به ويجعله من الوسائل التي تهدي إلى كيفية الحج المبرور الذي ليس له جزاء إلا الجنة.

الفصل الأول

البيت والمناسِك في التاريخ



نصوص قرآنية

- ١ -

يقول الله تعالى من سورة البقرة:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾(١).

ومن سورة إبراهيم:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾(٢).

ومن سورة الحج:

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٧ - ١٢٨.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ[١] وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾[٢].

- ٢ -

من تاريخ إبراهيم عليه السلام:

اتجه إبراهيم عليه السلام إلى أرض الشام هو ولوط، وسارة، ومعهم هاجر، وكان معهم مال كثير، واستقر إبراهيم في أرض الشام، وأرسل لوطاً إلى سدوم.

فلما استقر بإبراهيم المقام، وهدأت الأمور، رأت سارة أن حياة إبراهيم عليه السلام بدون ولد يلعب في البيت، ويبتسم ويضحك، حياة ينقصها عنصر من عناصر البهجة، ورأت أن حياة الدعوة محتاجة إلى ولد يتشرب مبادئها، ويشب في جوها ويسير على قواعدها، ثم يتابع الرسالة، ويحمل الدعوة بعد أبيه.

فعرضت على إبراهيم أن يدخل بهاجر.

وماذا في ذلك؟

إن هاجر - فيما رأت سارة، وفيما رسم لها تفكيرها - خادمتها، وستستمر هي برغم دخول إبراهيم بهاجر، سيدة البيت الأولى، وستستمر

---

(١) يقضوا تفثهم: يزيلوا ما علق بهم من أوساخ.
(٢) سورة الحج، الآية: ٢٦ - ٣٠.

منزلتها من هاجر هي هي. منزلة ربة البيت وبجوارها خادمة، ولما وصل تفكيرها إلى هذا الحد وهبتها لزوجها لمجرد مهمة مجيدة هي إنجاب الولد.

وتم الزواج، وحملت هاجر.

فلما حملت، شعرت بأن الوضع قد تغير بسبب هذا الحمل، وشعرت بأنها وشيكاً ستكون أماً، وسيكون زوجها أباً: أي شديد الصلة بها، وثيق الرابطة بابنها، وشعرت بأنها تمتاز بما ينقص سارة، وأنها لم تعد مجرد الخادمة التابعة، بل أصبحت من الأسرة، لها حقها، ولها كرامتها.

وربما كانت في كل ذلك لا هم إلا تمهيد جو كريم يشب فيه ابنها بحيث لا يرى أثراً لماضي أمه المتواضع، ولا يرى جواً تكون أمه فيه أقل منزلة من باقي الزوجات.

ولعلها لم تكن في كل ذلك ناظرة إلى نفسها، وإنما ناظرة إلى هذا الأمل الحلو الذي يوشك أن يتحقق، وإلى هذه السعادة التي توشك أن تنبثق، إنها ستعطي لإبراهيم ما تمناه حين دعا الله أن يهب له ولداً من الصالحين، وستسعد هي بأن تكون أماً.

شعرت سارة بالوضع الجديد، ولاحظت في مسلك إبراهيم عليه السلام من هاجر تغيراً، لقد أصبح يعاملها كزوجة، بعد أن كان يعاملها كخادمة، ومع أنه لم يكن يهينها، أو يمتهنها فيما مضى؛ لأنه على خلق كريم، ومع أن نضجه واتزانه، ورويته كانت تمنعه من إظهار ألوان من الخفة تبدو في مسلك من حرم الولد فترة طويلة من الدهر ثم إذا به فجأة، وعلى لهفة إلى الولد يرى الأمل العذب يوشك أن يتحقق، ومع أنه كان رفيقاً بسارة محباً لها، متودداً إليها. مع كل ذلك شعرت سارة بأن

الموقف قد تغير.

وها هي ذي تتبع حركات هاجر، الصغيرة منها والكبيرة، بفؤاد يقظ، تسمع أذنها ما تقول هاجر، وكذلك كانت أيضاً ـ بل من باب أولى ـ فيما يتعلق بإبراهيم عليه السلام، وكثبت عاطفتها فأخذت تبدي ما خفي في نفسها شيئاً فشيئاً وأخذت هاجر تتلطف وتتستر، حتى لتقول الروايات: إنها اتخذت أثواباً طويلة الذيل لتخفي آثارها عن سارة، أي لتخفي سيرها، ومواضع أقدامها، فتضيع المعالم، ولا يتأتى لسارة أن تعلم خط سيرها حينما تتبعها في حلها وترحالها.

ـ ٣ ـ

اتجه إبراهيم إلى الله متضرعاً وقال:

﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(١).

واستجاب الله دعاءه وبشره بغلام حليم.

ولد هذا الغلام بأرض الشام، ولدته هاجر التي وهبتها سارة لإبراهيم، زوجة له، فلما دخل بها حملت، وجاء يوم رأى فيه بيت إبراهيم عنصراً جديداً في حياته هو إسماعيل. المولود الجديد، ودبت الغيرة في قلب سارة، فلم تحتمل رؤية إسماعيل وأمه، فأشارت على إبراهيم أن يتخير لها مكاناً آخر.

واستخار إبراهيم ربه، ثم حمل الأم وطفلها إلى المكان الذي أمر الله بإقامتهما فيه: إلى مكة.

لقد وضعهما عند شجرة كبيرة، «فوق زمزم في أعلى المسجد»

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٠.

وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، إذ لم يكن زمزم قد تفجر بعد.

لقد وضعهما هنالك، وترك لهما شيئاً يسيراً من الزاد يتمثل في جراب من تمر، وفي سقاء من ماء.

وهم إبراهيم عليه السلام بالعودة من حيث أتى، وتطلعت هاجر هنا وهناك، وأجالت بصرها شرقاً، وغرباً، وشمالاً وجنوباً، فلم تر أنيساً، ولم تلمح أثراً للحياة، فتعلقت بإبراهيم ترجوه في أن لا يتركهما بهذا الوادي الذي لا أنيس فيه، وصمت إبراهيم عليه السلام، وأعادت هاجر الرجاء، وصمت إبراهيم عليه السلام، وكررت هاجر الرجاء، فلم تجد إلّا صمتاً، صمتاً تتمثل فيه الرحمة والمودة والحب والحنان، ولكنه صمت مصمم، وسكوت عازم.

فقالت هاجر: الله أمرك بهذا؟.

فقال: نعم.

فقالت: إذن لا يضيعنا.

وتركته ينصرف وعادت إلى ابنها تضمه بين ذراعيها في حنان وحب، وسرحت بخيالها في المستقبل المجهول، وفي تصاريف القدر، وكلها ثقة في عناية الله، ورعايته.

انطلق إبراهيم عائداً، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا الله رافعاً يديه قائلاً:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

وهدأت نفسه، وسار في طريقه مفوضاً الأمر إلى الله الذي لا تهمس في الكون همسة، ولا تطرف فيه عين إلا بإرادته.

أما أم إسماعيل فقد انفردت في هذا المكان مع ابنها الرضيع تجول فطرتها في عالم الإشفاق، ويجول إيمانها في جو الثقة، تجرها طبيعتها إلى الخوف، وينزع بها يقيناً إلى الأمن، ثم ألقت بقيادها إلى الله، وضمت طفلها إلى صدرها، وأغمضت عينيها، وأرسل الله النعاس إنقاذاً لها من التردد بين ما توحي به طبيعتها وفطرتها، وما يوحي به إيمانها ويقينها.

وعاشت أم إسماعيل على جريب التمر وسقاء الماء مقتصدة، مسرفة في الاقتصاد، ولكن جريب التمر، وسقاء الماء، ما لبثا أن نفدا.

- ٤ -

وضع إبراهيم عليه السلام ابنه الرضيع إسماعيل، وأمه هاجر عند بيت الله الحرام، وتركهما ومعهما زاد قليل لم يلبث أن نفد، وجاعت الأم، وألح بها الظمأ، وجاع ابنها، وألح به الظمأ، وجعل يتلوى باكياً صارخاً في منظر يفتت القلوب، ولم تتحمل الأم رؤيته على هذه الحالة، فانطلقت ـ كراهية أن تنظر إليه على هذه الحالة، فوجدت الصفا أقرب المرتفعات إليها، فأسرعت نحوه، وارتقت عليه، وأخذت تجيل بصرها في الوادي، هل ترى أحداً، فلم تر أحداً.

لقد كانت تسعى، وقد أنهكها الجوع والعطش، تدفعها عاطفة الرحمة بابنها، كانت تسعى وكلها رحمة بهذا الرضيع الذي يلوح أمام عينيها، وفي ذهنها منظره يتلوى جوعاً وعطشاً، لقد أخذت تسعى حتى جاوزت الوادي، ووصلت إلى جبل المروة فارتقته وأخذت تنظر، وعادت

من جديد هابطة، وهكذا أخذت تتردد حيرى والهة بين الأكمتين سبع مرات.

وهذا هو أساس منسك السعي بين الصفا والمروة، شعيرة من شعائر الحج.

قال ابن عباس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

فذلك سعى الناس بينهما.

والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾(١).

إن الحاج إلى بيت الله الحرام يسعى بين الصفا والمروة سبع مرات، إنه في هذا السعي يترسم خطى هذه السيدة، إنه يترسمها مستشعراً ما كانت تشعر به من رحمة وحنان. وإذا كانت رحمتها وحنانها إنما كانتا من أجل ابنها الرضيع المسكين، فإن الرحمة التي ينبغي أن يستشرف إليها الحاج راجياً أن تملأ نفسه، وأن تفعم جوانحه، إنما هي الرحمة بالإنسانية جمعاء، بكل من يحس بالألم، أو يشعر بالضيق، بسبب ما يحل به من جوع، أو ظمأ، أو بسبب ما يحيط به من مكر وكيد، أو بسبب ما يشعر به من خوف وقلق، الرحمة بكل من كان في حاجة إلى الرحمة.

ونعود إلى أم إسماعيل فنجدها يلوح لها بريق من الأمل، فها هي ذي تسمع صوتاً، وخيل إليها ـ وهي في عنفوان عاطفتها ـ أن نبضات قلبها، أو خفقات ثوبها تعكر عليها السماع، فقالت:

صه، أي اسكت، وكانت تريد نفسها بذلك، ثم تسمعت، وكلها

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٨.

آذان، وصمتت وكلها شعور، فسمعت الصوت من جديد، فصاحت بأعلى صوتها مستنجدة في لهفة قائلة:

«قد أسمعت إن كان عندك غوث».

فإذا هي بالملك عند موضع زمزم يهز الأرض، فإذا الماء يظهر، وإذا النبع يتفجر، وإذا السعادة كلها تلوح عند هذا الماء المتلألىء في شعاع الشمس، وإذا قلب هذه يسجد لله شكراً، وإذا لسانها ينطق ثناء وحمداً، ثم إذا هي تسمع الملك يقول:

«إن الله لا يضيع أهله».

ـ ٥ ـ

شربت أم إسماعيل وأرضعت ولدها، وقال لها الملك ـ كما روى الإمام البخاري ـ «لا تخافوا الضيعة، فإن هذا بيت الله، يبنيه هذا الغلام، وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله».

هل كان بيت الله مبنياً؟.

ومن بناه؟

إن إبراهيم عليه السلام يقول:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ ﴾[1].

إن حديث الإمام البخاري يقول:

«وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول، فتأخذ عن يمينه وشماله».

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

ويقول الله تعالى في تحديد لا لبس فيه:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾[1].

وبكة في قوله تعالى: هي مكة، فمتى بني هذا البيت؟.

يروي الإمام البيهقي في دلائل النبوة بسنده عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم قال:

«بعث الله جبريل إلى آدم، فأمره ببناء البيت، فبناه آدم، ثم أمر بالطواف به وقيل له:

أنت أول الناس، وهذا أول بيت وضع للناس.

وروى عبد الرزاق عن عطاء رضي الله عنه، أن آدم أول من بنى البيت.

والأحاديث النبوية متناسقة مع القرآن الكريم، تشير إلى أن أول بيت وضع للناس إنما هو البيت الحرام، وأن أول من بناه إنما هو آدم.

وما من شك في أن البيت كان يهمل ويترك أحياناً فيتهدم، ولكن معالمه تبقى حتى يأتي من يجدده، وقد جدده سيدنا إبراهيم، وسيدنا إسماعيل.

والله سبحانهه وتعالى يقول:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾[2].

ولم يقل سبحانه:

«وإذ يضع إبراهيم القواعد».

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٧.

وإبراهيم وإسماعيل كانا إذن يرفعان القواعد التي وضعها آدم عليه السلام. ولا بأس بأن نتعجل سير التاريخ من أجل تكميل قصة البيت حتى لا تكون متفرقة متشتتة. لا بأس بأن نتعجل سير التاريخ فنصل إلى إسماعيل عليه السلام، وقد أصبح رجلاً فتياً يأتيه أبوه فيقول له ـ كما يروي الإمام البخاري ـ الله أمرني بأمر.

قال: فاصنع ما أمرك ربك.

قال: وتعينني؟.

قال: وأعينك،

قال: فإن الله أمرني أن أبني هنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان:

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ «البقرة/١٢٧».

قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان؛

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ «البقرة/١٢٧».

- ٦ -

إن الله لا يضيع أهله، ومن أجل ذلك فجر ماء زمزم رحمة بإسماعيل وبأمه هاجر. وما أن تفجر الماء حتى حام حوله الطير، كأنه كان منه على ميعاد، وكان من تدبير الله سبحانه، أن مرت في هذه الفترة بالقرب من الماء المتفجر قافلة من جرهم، فلما رأوا طيوراً تحوم حول مكان زمزم أخذتهم الدهشة، لأنهم يعلمون أن الطيور لا تحوم إلا على

ماء، ويعلمون من جانب آخر أن هذا المكان ـ وقد مروا به من قبل ـ لا ماء فيه.

ولأجل أن يقطعوا الشك باليقين أرسلوا رسلاً منهم يستنبئـون الخبر، فإذا هم بالماء فرجعوا إلى قومهم فرحين متهللين، وأخبروهم فأقبل الجميع، وكانت أم إسماعيل على الماء.

فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟.

قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، وقبلوا شرطها ونزلوا بجمعهم، ثم أرسلوا إلى أهليهم، فجاءوا، ونزلوا معهم.

يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فآنس ذلك أم إسماعيل، وهي تحب الأنس.

أنست أم إسماعيل بهم، وعاشروها فأحسنوا معاملتها، وشب ابنها بينهم وكانت لغتهم العربية، فأخذها إسماعيل عنهم، وأصبحت لغته، ولغة ذريته من بعده.

ولقد اشتهر بالعربية الفصيحة البليغة، حتى لقد قال بعضهم:

«إن عربيته كانت أفصح من عربية يعرب بن قحطان».

شب إسماعيل عليه السلام بين جـرهم فيه الفتـوة، والمروءة والذكاء، والرجولة، وأعجبتهم أخلاقه فزوجوه فتاة منهم.

وكانت أم إسماعيل قد تقدمت بها السن، فاختارها الله لجواره.

وكان إبراهيم عليه السلام يأتي بين الفينة، والفينة «يطالع تركته» على حد تعبير الحديث الشريف، أي يتفقد حال من تركهم بجوار البيت الحرام.

وذات يوم جاء إبراهيم على عادته، وكانت هاجر قد ماتت، وكان إسماعيل قد تزوج. وطرق إبراهيم الباب، فخرجت له زوجة إسماعيل، فسألها عنه فقالت: خرج يطلب لنا الرزق، فسألها عن عيشهم فقالت له:

نحن بشر حال، نحن في ضيق شديد، وشدة محزنة، وأخذت تشكو إليه أمرها، ضيقة بحياتها، بطرة بعيشها.

ولقد رأى من خلال حديثها أنها ترى العالم بمنظار أسود، وتغلب على كل شيء فيه جانب التشاؤم، وتجري بخيالها في أودية الهموم حتى وإن كانت الهموم بعيدة عنها، ورأى أن هذا النوع من النساء يجعل الحياة بعيدة عن السعادة.

وما من ريب في أن من آيات الله أن خلق لنا من أنفسنا أزواجاً لنسكن إليها، وجعل بيننا مودة ورحمة، فإذا فقد ذلك، فإن الزواج يكون مأساة مستمرة.

رأى إبراهيم كل ذلك فقال لها:

إذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له: يغير عتبة بابه.

وكما قابلته بتهجم، فقد ودعته باستخفاف.

فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال:

هل جاءكم من أحد؟.

قالت: نعم، جاءنا شيخ من صفته كذا وكذا، وكانت في حديثها كالمستخفة به.

وقالت كالمتحدية:

أخبرته أنا في جهد وشدة.

فقال إسماعيل:

وهل أوصاك بشيء؟

قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك.

قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك، فطلقها.

- ٧ -

روى الإمام البخاري قال: حدثني عبد الله بن محمد حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن أيوب السختياني وكثير بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة يزيد أحدهما على الآخر، عن سعيد بن جبير، قال ابن عباس.

أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتخفي أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل، وهي ترضعه، حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت:

يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنس ولا شيء. فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها فقالت له: الله الذي أمرك بهذا؟.

قال: نعم.

قالت: إذن لا يضعينا، ثم رجعت.

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾[1].

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال: يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر، هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت، هل ترى أحداً فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات. قال ابن عباس:

قال النبي ﷺ: «فذلك سعى الناس بينهما».

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت: صه تريد نفسها ثم تسمعت، فسمعت أيضاً، فقالت قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه، أو قال بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه، وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف. قال ابن عباس:

قال النبي ﷺ، يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال: لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً.

قال: فشربت، وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: «لا تخافوا الضيعة، فإن هاهنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.

أهله». وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله.

فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم، أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي، وما فيه ماء، فأرسلوا جرياً، أو جريين، فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء. فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك، فقالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء، قالوا: نعم، قال ابن عباس:

قال النبي ﷺ: فألفى ذلك أم إسماعيل، وهي تحب الأنس، فنزلوا، وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم، وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل.

فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه.

فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم، وهيئتهم، فقال نحن بشر، نحن في ضيق وشدة، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له يغير عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل، كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول غير عتبة بابك، قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك، فطلقها.

وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم، وهيئتهم، فقال: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله، فقال: ما طعامكم؟ قالت اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء. قال النبي صلى الله عليه وسلم:

ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم دعا لهم فيه، قال فهما: لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه.

قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه.

فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟، قالت: نعم أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنا بخير، قال فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد.

ثم قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر.

قال: فاصنع ما أمرك ربك.

قال: وتعينني؟

قال: وأعينك.

قال: فإن الله أمرني أن ابني هاهنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة

على ما حولها قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني. وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان:

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ «البقرة/١٢٧».

- ٨ -

والآن نعود إلى الماضي من جديد فقد تعجلنا التاريخ، وقفزنا في الزمن قفزاً سريعاً، نعود إلى إبراهيم عليه السلام، ها هو ذا يقول:

﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(١).

وحزم أمره فغادر العراق متجهاً إلى الشام، وفي أثناء الطريق أحس إبراهيم بأنه يسير دون أن يكون في صحبته ولد يؤنسه ويعينه، لقد شعر بالحاجة إلى وريث للدعوة، معين فيها، وأحس بالشعور الفطري، شعور الأبوة يريد أن تتحقق الأبوة. والحنين إلى الأبوة كالحنين إلى الأمومة فطرة في الإنسان، ولم يكن إبراهيم عليه السلام قد أنجب إذ ذاك أولاداً، فاتجه إلى الله في تبتل وضراعة، وخشوع وقال:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٢).

الصالحين للدعوة، والصالحين للحياة، والصالحين في أنفسهم، والصالحين لله.

إن كلمة الصالحين فيها من المعاني ما فيها.

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٩٩.

(٢) سورة الصافات، الآية: ١٠٠.

ويجيب الله سبحانه وتعالى دعاءه قائلاً:

﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾[1].

وما من شك في أن الحلم من الأسس الأصيلة للنجاح في الدعوة.

أتى هذا الغلام على كبر من سن والده، وأتى على لهفة للولد، وأتى بكر والده، وكان وحيداً، وكان أمل والده فيه، وفي مستقبله كبيراً، وخصوصاً لأن الله منحه عقلاً وذكاء ونجابة، ومن جل ذلك كان قرة عين والديه، وكان حبهما له كبيراً.

أخذ الغلام يشب ويترعرع حتى بلغ السن الذي يتمكن فيه من السعي والعمل، وبلغ أيضاً من حب والديه له مبلغاً عظيماً، وكان الحب يزداد مع الأيام، ويكبر على مر السنين، وفي هذه الفترة وقد بلغ فيها الأمل في الغلام والحب له درجة سامية إذا بوالده يرى فيما يراه النائم، أنه يذبح ابنه، وكان الوالد يعلم أنها إشارة له بذبح ابنه، أنها إشارة إلّهية، فما كان للشيطان عليه من سبيل، أنه ابتلاء جديد من نوع الابتلاء الذي اختبره به الله من تحطيم الأصنام والإلقاء في النار.

لقد نجح في الاختيار السابق، واجتازه في ثقة بالله لا حد لها.

بيد أن الابتلاء السابق كان واضح المعنى، وكان سافر الملامح.

لقد كان أمراً صريحاً بتحطيم الأصنام، وكان تحطيمها مفهوم الدلالة، فما ينبغي أن يعبد مع الله أحد، وما يجوز في منطق القلب والعقل والشعور السليم أن ينصرف الإنسان عن مانح النعم وواهب الفضل إلى غيره، خصوصاً إذا كان هذا الغير لا يسمع، ولا يبصر، ولا يغني شيئاً.

وكان الإلقاء في النار أيضاً واضح المعنى: إنه في سبيل الله، وفي

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠١.

سبيل الله يهون كل ألم، ومن أحب الله وعمل على مرضاته لا يتردد في تحمل كل ما يناله في سبيله سبحانه. لقد نجح في الابتلاء الماضي، وحفظه الله سبحانه، وكتب له النجاة كما يفعل سبحانه بكل من والاه.

ولكن هذا الابتلاء الجديد غير مفهوم المعنى. وليس بواضح الملامح، إنه قتل إنسان، إنه ذبح إنسان، وهذا الإنسان ابن، والوالد هو الذي يذبحه.

سبحانك ربي، لقد حفظت هذا الغلام رضيعاً، وفجرت له الماء رحمة به، وقد كان من الممكن أن تنتهي به الحياة إذ ذاك، ولكنك سبحانك وجلت حكمتك أبقيته وحفظت حياته، فكان من المفروض أن تستمر به الحياة إلى أن تبلغ غايتها.

لعل مثل هذه الآراء جالت بذهن إبراهيم، أو بذهن أم إسماعيل، ولكنها كانت في مقابلة الإشارة الإلّهية بالذبح، كالهباء في الهواء، لم تثبت على قدميها، وكان لا بد مما ليس منه بد، وتهيأ إبراهيم عليه السلام لذبح ابنه، بكره، ووحيده.

لقد تهيأ لذبح إسماعيل، ما هي الحكمة؟

- ٩ -

أشار الله إلى إبراهيم في الرؤيا بذبح ابنه، والحكمة في ذلك - كما يقول الإمام ابن القيم - إن الله سبحانه أجرى العادة البشرية، ان بكر الأولاد أحب إلى الوالدين ممن يولد بعده.

وإبراهيم لما سأل ربه الولد ووهبه له تعلقت شعبة من قلبه بمحبته، والله سبحانه وتعالى قد اتخذه خليلاً، والخلة منصب يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة، وأن لا يشارك بينه وبين غيره فيها.

فلما أخذ الولد شعبة من قلب الوالد، أحب الله سبحانه لخليله أن يكون له كلية، فأمره سبحانه بذبح هذا الذي أخذ حبه شعبة من قلبه، وذلك ليخلص له كاملاً.

وجاء إبراهيم عليه السلام في يوم من الأيام إلى ابنه قائلاً:
﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ ﴾[1].

أما قوله لابنه «فانظر ماذا ترى»، فإنه لم يكن تخييراً له، وإنما أحب الوالد أن يأتي ابنه رغبة وطاعة، فيكون له الأجر والثواب.

ولو تردد الابن، أو أبى، أو خالف، لأخذه أبوه رغم أنفه.

يقول الإمام الرازي:

الحكمة في مشاورة الابن في هذا الباب. أن يطلع ابنه على هذه الواقعة، ليظهر له صبره في طاعة الله، فتكون فيه قرة عين لإبراهيم، حيث يراه قد بلغ في الحلم إلى هذا الحد العظيم. وفي الصبر على أشد المكاره إلى هذه الدرجة العالية.

ويحصل للابن الثواب العظيم في الآخرة، والثناء الحسن في الدنيا.

وحينما سمع إسماعيل عليه السلام من أبيه هذا الخبر، وكان يشعر شعوراً واضحاً أن أباه لا يسير في حياته إلا بتوجيه إلٰهي، وأن الشيطان لا سبيل له على أبيه، أجاب فوراً:

﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[2].

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.
(٢) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.

ماذا حدث بعد ذلك؟

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

«قال الابن: يا أبت اشدد رباطي كي لا أضطرب، واكفف ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمي شيء فينقص أجري، وتراه أمي فتحزن، واستحد شفرتك، وأسرع بها على حلقي ليكون أهون عليّ. وإذا أتيت أمي فاقرأ عليها السلام مني، وإن رأيت أن ترد عليها قميصي فافعل، فإنه عسى أن يكون أسلى لها عني.

قال إبـراهيم عليه السلام:

«نعم العون أنت يا بني على أمر الله» اهـ.

لقد تهيأ كل شيء لتنفيذ الرؤيا، ومع ذلك فإن الذبح لم يتم، فماذا حدث؟

- ١٠ -

هم سيدنا إبراهيم بذبح ابنه، وتهيّأ كل شيء لتنفيذ الذبح:

الأب موقن بأن رؤياه إلهام من الله، والابن موقن بأنه على صواب حينما رضي بالموت تنفيذاً لأمر الله.

لقد استسلم الأب لأمر الله، واستسلم الابن لأمر الله، والقرآن حينما تحدث عن حالتهما هذه قال:

﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا ﴾.

لقد أسلما رغم محاولة الشيطان أن يلعب دوراً في هذا الاختبار والابتلاء.

لقد جاء الشيطان يوسوس إلى إبراهيم عليه السلام موحياً بأن الأمر

لا يخرج عن أن يكون رؤيـا، وكم في الرؤى من أضغاث أحلام، وهل من العقل أن يذبح إنسان ابنه مطيعاً رؤيا؟

لعلها وهم من الأوهام، ولعلها خيال، مجرد خيال، على أنه في الرؤيا ـ حسب وسوسة الشيطان ـ لم يؤمر بذبح ابنه، ولكنه رأى أنه يذبحه، وفرق بين أن يؤمر بذبحه، وبين أن يرى أنه يذبحه.

وأحس سيدنا إبراهيم بالشيطان يريد أن ينفذ إلى قلبه، وإلى تفانيه في الله، وإلى موطن اليقين والرضا من قلبه، فرجم الشيطان بسبع حصيات ورده خاسئاً مدحوراً.

ولم ييأس الشيطان، وهو العنيد اللجوج، لقد انصرف عن الأب إلى الابن قائلاً:

إنها رؤيا، مجرد رؤيا، أيذبحه أبوه من أجل رؤيا؟ وأحس الابن بالمحاولة الخبيثة، وعرف أنها محاولة شيطانية، فرجم الشيطان بسبع حصيات.

ولم ييأس الشيطان وهو العنيد اللجوج، فذهب مسرعاً إلى الأم:

أدركي ابنك إن أباه يريد أن يذبحه، استنقذيه منه، قبل فوات الأوان، ورجمته الأم لثقتها بأن زوجها لا يتصرف إلا في إطار الوحي، لقد رجمته هي الأخرى بسبع حصيات، لقد رجم الجميع مصدراً من أهم مصادر الشر وهو الشيطان، وهذا الرمز الجميل، أعني رجم مصدر من مصادر الشر هو الذي يتكرر كل عام حينما يوشك الحجاج إلى بيت الله الحرام، أن ينتهوا من حجهم.

إن حكمة رمي الجمار في الحج: إنما هي رجم مصدر من أهم مصادر الشر والإثم والمعصية وهو إبليس. رجمه مراراً وتكراراً، وتنتهي أعمال الحج بهذه الصورة الرائعة، صورة العزم المصمم على الابتعاد

المطلق عن الإثم والمعصية. . . وذلك تسجيل مؤكد، وإعلان مشهود، وإشهاد سافر على أن الحاج قد عزم عزماً لا تزعزعه أعاصير الشهوة أو مغريات الفتنة على أن يصبح خيراً كله، لا مجال لنزغان الشيطان للتسلل إلى نفسه، فقد أصبح بتطهير نفسه، وبرجم الشيطان من عباد الله المخلصين الذين لا سلطان للشيطان عليهم.

لقد أسلم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، فلما أسلما: أي خلصا لله كلية واستسلما إليه استسلاماً مطلقاً جاء النداء. وذلك أنه في اللحظة الأخيرة نودي إبراهيم عليه السلام:

﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾[1].

لقد أسلما إسلاماً استتبع الفداء، والإسلام لله على هذه الصورة أي الاستسلام الكامل لله يستتبع حتماً الفداء في كل عصر، وفي كل مصر.

إن من أسلم نفسه لله عاملاً في سبيله، قائماً بما يرضيه، تكفل الله به حماية ونصراً، عناية ورعاية في الدنيا والآخرة:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾[2].

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٠٤، ١٠٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ٦٢. ٦٤.


سبح اسم ربك الأعلى

الفصل الثاني

الحج فيما بين الجاهلية والإسلام


سبح اسم ربك الأعلى

إن قريشاً غمرتها روحانية. ففكرت في أمر الدين وقداسته، والبيت وحرمته. وبعد تأمل وترو ابتدعت رأي الحمس، والحمس جمع أحمس، والأحمس كما يقول صاحب المختار هو: الشديد الصلب في الدين والقتال، ولم يكن هذا الرأي الذي ابتدعوه إلا تحمساً دينياً وعاطفة روحانية قوية. . .

وكانوا يذهبون فيه ـ كما يقول السهيلي ـ «مذهب التأله والتزهد» قال ابن إسحاق «وقد كانت قريش ـ لا أدري قبل عام الفيل أم بعده ـ ابتدعت رأي الحمس رأياً رأوه، وأداروه فقالوا: نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمة، وولاة البيت، وقطّان مكة وساكنوها، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا، ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا فلا تعظموا شيئاً من الحل كما تعظمون الحرم، فإنكم إن فعلتم ذلك استخف العرب بحرمتكم. وقالوا: قد عظموا من الحل مثلما عظموا من الحرم.

فتركوا الوقوف بعرفة والإفاضة منها، وهم يعرفون ويقرون بأنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ﷺ ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها، وأن يفيضوا منها، إلا أنهم قالوا: نحن أهل الحرم وليس ينبغي أن نخرج

من الحرمة، ولا نعظم غيرها كما نعظمها نحن الحمس والحمس أهل الحرم» اهـ.

ولقد كانوا في سبيل ذلك يشقون على أنفسهم، ويشقون على غيرهم فيحرمون على أنفسهم أشياء، ويفرضون عليها أخرى. . . وكذلك كانوا يفعلون بالنسبة للحاج والمعتمر.

قال ابن إسحاق: «ثم ابتدعوا في ذلك أموراً لم تكن لهم، حتى قالوا: لا ينبغي للحمس أن يأتقطوا الأقط[1] ولا يسلئوا السمن وهم حرم، ولا يدخلوا بيتاً من شعر ولا يستظلوا - إن استظلوا - إلا في بيوت الادم[2] ما كانوا حرماً. . . ثم رفعوا في ذلك فقالوا:

ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاؤوا به معهم من الحل إلى الحرم، إذا جاءوا حجاجاً أو عماراً، ولا يطوفون بالبيت وإذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس، فإن لم يجدوا منها شيئاً طافوا بالبيت عراة، فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه، ثم لم ينتفع بها. ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبداً. . . فحملوا على ذلك العرب فدانت به، ووقفوا على عرفات وأفاضوا منها. . . وطافوا بالبيت عراة، أما الرجال فيطوفون عراة، وأما النساء فتضع إحداهن ثيابها كلها إلا درعاً مفرجاً عليها، ثم تطوف فيه. . .

وكان الغرض من طوافهم عراة، إن لم يجدوا ثياب أحمس هو طرح الثياب التي اقترفوا فيها الذنوب فقد تدنست بما أتوا من معصية. . . عن أبي كريب[3]. قال: حدثنا أبو أسامة حدثنا هشام عن أبيه قال:

---

(١) الأقط: الجبن - لا يصنعون الجبن ولا يصنعون السمن.
(٢) الجلد.
(٣) رواه البخاري.

كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحمس، والحمس قريش وما ولدت، كانوا يطوفون عراة إلا أن تعطيهم الحمس ثياباً فيعطي الرجال الرجال والنساء النساء، وكانت الحمس لا يخرجون من المزدلفة، وكان الناس كلهم يبلغون عرفات. . . قال هشام: فحدثني أبي عن عائشة رضي الله عنها قالت: الحمس: هم الذين أنزل الله عز وجل فيهم:

﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ «البقرة/١٩٩».

قالت: كان الناس يفيضون من عرفات وكان الحمس يفيضون من المزدلفة، يقولون: لا نفيض إلا من الحرم، فلما نزلت ﴿ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾ رجعوا إلى عرفات وعن جبير بن مطعم قال:

أضللت بعيراً لي، فذهبت أطلبه يوم عرفة، فرأيت رسول الله ﷺ واقفاً مع الناس بعرفة، فقلت: والله إن هذا لمن الحمس فما شأنه ههنا، وكانت قريش تعد من الحمس.

وعن يحيى بن يحيى قال: أخبرنا أبو معاوية عن هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمون الحمس وكان سائر العرب يقفون بعرفة، فلما جاء الإسلام أمر الله عز وجل نبيه ﷺ، أن يأتي عرفات فيقف بها ثم يفيض منها، فذلك قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾.

وعن عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، حدثنا جعفر بن محمد، حدثني أبي قال: أتيت جابر بن عبد اللّه فسألته عن حجة رسول الله ﷺ وساق الحديث بنحو حديث حاتم بن إسماعيل، وزاد في الحديث، وكانت العرب يدفع بهم أبو سيارة على حمار عرى، فلما أجاز رسول الله ﷺ من المزدلفة بالمشعر الحرام لم تشك قريش أنه سيقتصر

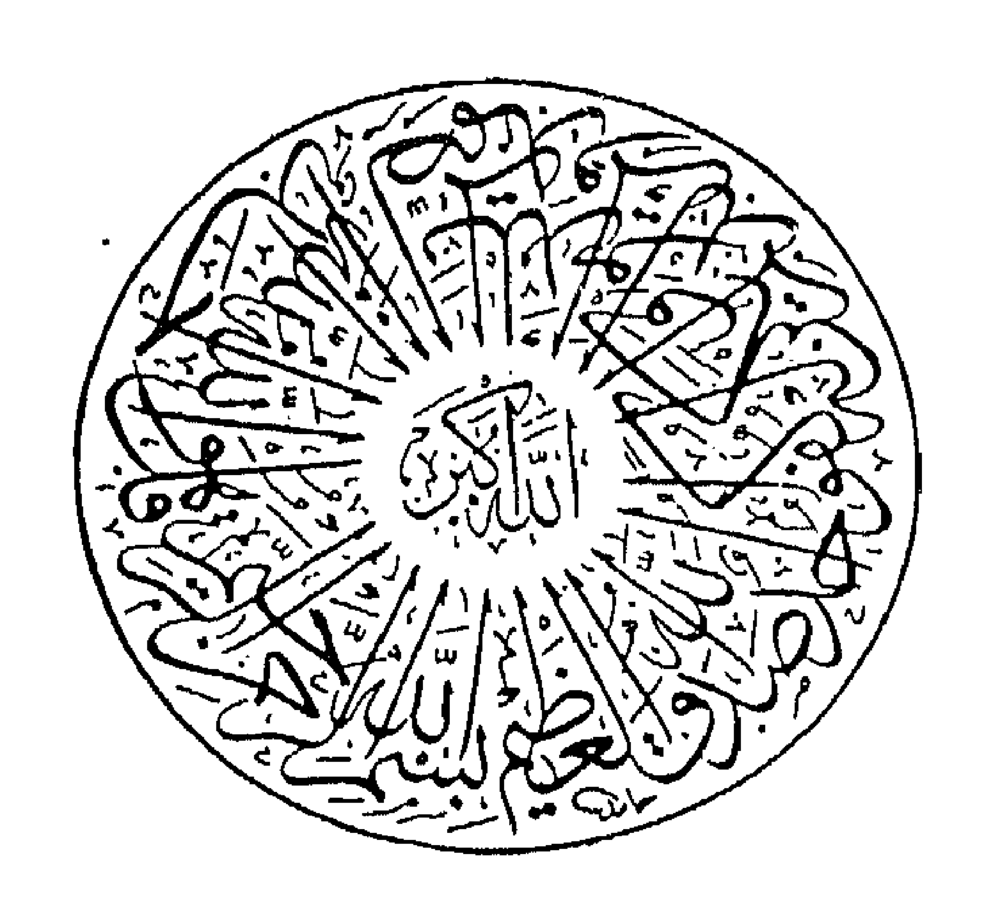
عليه ويكون منزله ثم أجاز ولم يفرض له حتى أتى عرفات فنزل.

قال ابن إسحاق: وحدثني حكم بن حكيم بن عباد بن حنيف عن أبي جعفر محمد بن علي رضوان الله عليه أنه قال:

لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ، وقد كان بعث أبا بكر الصديق ليقيم للناس الحج، قيل له: يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبي بكر، فقال: لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي، ثم دعا علي بن أبي طالب ـ رضوان الله عليه ـ فقال له: أخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته... فخرج علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، على ناقة رسول الله ﷺ، الغضباء حتى أدرك أبا بكر بالطريق، فلما رآه أبو بكر بالطريق قال: أأمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور... ثم مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية، حتى إذا كان يوم النحر، قام علي بن أبي طالب «رضي الله عنه» فأذن في الناس بالذي أمره به رسول الله ﷺ... فقال: أيها الناس: إنَّه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته. وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ، عهد إلى مدة فهو إلى مدته... فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان.

الفصل الثالث

الحج من أركان الإسلام



يقول الله تعالى:

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ في سؤال جبريل إياه عن الإسلام؟ فقال:

الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج، وتعتمر، وتغتسل من الجنابة، وأن تتم الوضوء، وتصوم رمضان.

قال: فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم؟

قال: نعم.

قال: صدقت[2].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٩٧.

(٢) رواه ابن خزيمة في صحيحه، وهو في الصحيحين وغيرهما بغير هذا السياق في الأسلوب ولكنه متحد في المعنى.

فريضة الحج مرة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال:

«يا أيها الناس: إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟

فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ:

«لو قلت نعم لوجبت، ولما استطعتم، ثم قال:

ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»[١].

أفضل الأعمال

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ:
أي العمل أفضل؟ قال:
إيمان بالله ورسوله.
قيل: ثم ماذا؟ قال:
الجهاد في سبيل الله.
قيل: ثم ماذا؟ قال:
حج مبرور[٢].

وروى ابن حبان في صحيحه قال: قال رسول الله ﷺ:

«أفضل الأعمال عند الله تعالى: إيمان لا شك فيه، وغزو لا غلول

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه البخاري ومسلم.

فيه، وحج مبرور».

«المبرور»: قيل هو الذي لا يقع فيه معصية.

وقد جاء من حديث جابر مرفوعاً، أن بر الحج، إطعام الطعام وطيب الكلام.

وعند بعضهم: «إطعام الطعام، وإفشاء السلام».

ومما لا شك فيه أن ذلك من بر الحج.

ولقد حدد الله سبحانه بر الحج بقوله تعالى:

﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾.

وفد الله:

عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال:

«الغازي في سبيل الله، والحاج، والمعتمر، وفد الله... دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الحجاج والعمار وفد الله، إن دعوه أجابهم، وإن استغفروه غفر لهم[2].

وروى ابن خزيمة، وابن حبان، في صحيحهما، ولفظهما:

قال رسول الله ﷺ:

«وفد الله ثلاثة: الحاج، والمعتمر، والغازي»... وقدم ابن خزيمة «الغازي».

---

(١) رواه ابن ماجة، واللفظ له، وابن حيان في صحيحه.

(٢) رواه النسائي وابن ماجة.

ثمار الحج المبرور:

ونعود إلى الحديث عن الحج المبرور وعن ثماره:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»(١).

«وما سبح الحاج من تسبيحة، ولا هلل من تهليلة ولا كبر من تكبيرة، إلا بشر بها تبشيرة».

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة.. قيل: وما بره؟... قال: إطعام الطعام، وطيب الكلام»(٢).

وفي رواية لأحمد والبيهقي:

«إطعام الطعام، وإفشاء السلام».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من حج فلم يرفث، ولم يفسق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»(٣).

وفي رواية للترمذي... أنه قال:

«غفر له ما تقدم من ذنبه».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفي

---

(١) رواه مالك والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة.

(٢) رواه أحمد والطبراني في الأوسط بإسناد حسن، وابن خزيمة في صحيحه والبيهقي، والحاكم مختصراً، وقال صحيح الإسناد.

(٣) رواه البخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجة.

الكير خبث الحديد، والذهب، والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة، وما من مؤمن يظل يومه محرماً إلا غابت الشمس بذنوبه»[1].

وعن عبد الله بن جراد الصحابي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ؛

«حجوا، فإن الحج يغسل الذنوب، كما يغسل الماء الدرن».

أشهر الحج:

يقول الإمام البخاري:

باب قول الله تعالى:

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ ﴾[2]، ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ ﴾[3].

وقال ابن عمر رضي الله عنهما:

«أشهر الحج: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما:

«من السنة أن لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج».

الاستطاعة:

وعند الترمذي عن ابن عمر، جاء رجل فقال:

«يا رسول الله!... ما يوجب الحج؟... قال: الزاد، والراحلة».

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) البقرة: ١٨٧.

(٣) البقرة: ١٨٩.

وتزودوا:

قال الإمام البخاري:

باب قول الله تعالى:

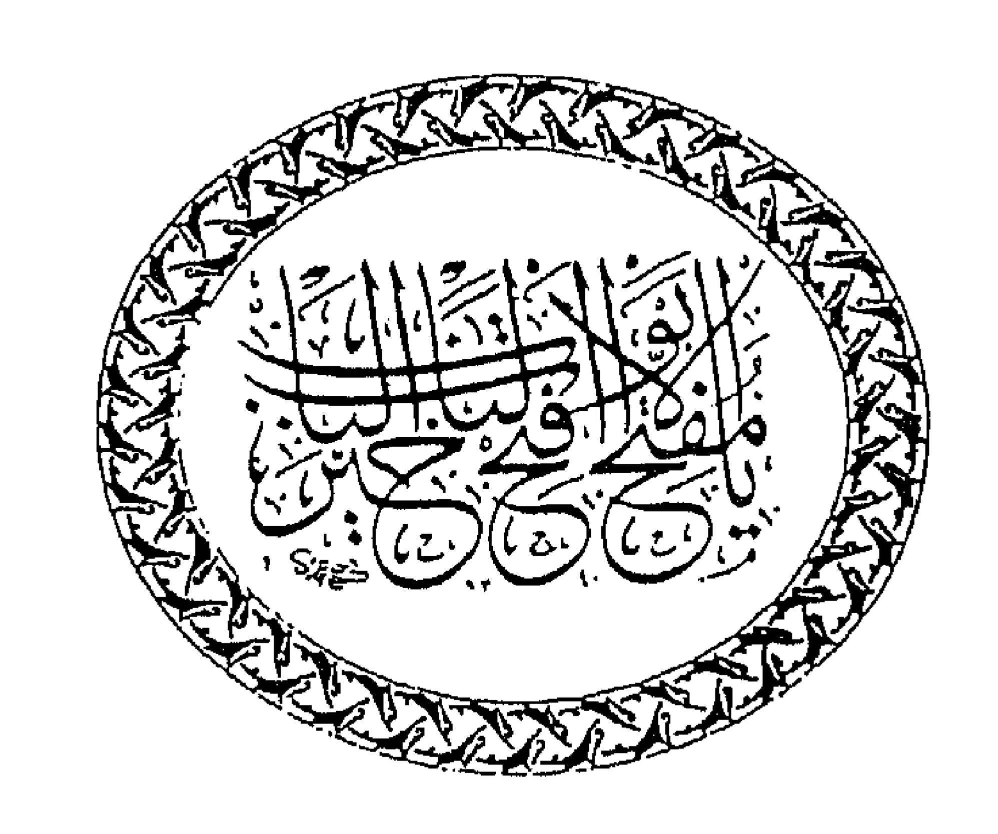
﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

حدثنا يحيى بن بشر بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:
وكان أهل اليمن يحجون، ولا يتزودون، ويقولون:
نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى:

﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

الفصل الرابع

الإحـــرام



الميقات:

الميقات: هو المكان الذي حددته السنة الشريفة لابتداء أعمال الحج.

وميقات المصريين الذين يركبون الطائرة يجوز أن يكون من بيوتهم، وهو أيسر لهم، أو من المطار.

أما ركاب البواخر، فإن ميقاتهم بالقرب من رابغ، وتبدأ أعمال الحج بالإحرام.

أنواع الإحرام:

عن عروة بن الزبير عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت:

«خرجنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عام حجة الوداع، فمنا من أهل، أي أحرم، بعمرة، ومنا من أهل بحجة وعمرة، ومنا من أهل بالحج، وأهل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحج.

فأما من أهل بعمرة فحل، وأما من أهل بحج، أو جمع الحج

والعمرة، فلم يحلوا، حتى كان يوم النحر»[1].

وقول السيدة عائشة رضوان الله عليها:

«فمنا من أهل بعمرة»... أي أحرم ناوياً العمرة وهكذا في بقية الحديث؛ ومعنى: «فأما من أهل بعمرة فحل» أي أنه بعد أداء العمرة لبس ملابسه العادية وأصبح يحل له ما كان ممنوعاً بسبب الإحرام.

وهذا الإحرام يتهيأ له الحاج بعدة أمور... منها:

١ - أن يحلق شعره أو يقصره...

٢ - أن يقص أظافره.

٣ - أن يستحم ناوياً بذلك غسل الإحرام وهو سنة...

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، «أن النبي ﷺ تجرد لإهلاله واغتسل»[2].

٤ - أن يمس الطيب، عن عائشة رضي الله عنها قالت:

«كنت أطيب رسول الله ﷺ، لإحرامه قبل أن يحرم، ولحله قبل أن يطوف بالبيت»[3] وقال عثمان بن عروة:

سمعت أبي يقول، سمعت عائشة تقول:

«طيبت رسول الله ﷺ لحرمه ولحله... قلت لها: بأي طيب؟... قالت: بأطيب الطيب».

وروى الإمام أحمد بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت:

«كأني أنظر إلى وميض[4] الطيب في مفرق النبي ﷺ بعد أيام وهو محرم».

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحج ومسلم في كتاب الحج.

(٢) رواه الترمذي وحسنه.

(٣) متفق عليه.

(٤) أي بريقه.

يقول ابن كثير:

«فهذه الأحاديث دالة على أنه عليه السلام تطيب بعد الغسل إذ لو كان الطيب قبل الغسل لذهب به الغسل ولما بقي له أثر ولا سيما بعد ثلاثة أيام من يوم الإحرام».

والطيب يستعمل قبل الإحرام، أما بمجرد الإحرام. فإنه يحرم استعمال الطيب.

٥ ـ أن يلبس ملابس الإحرام:

وملابس الإحرام معروفة، وقد اصطلح أكثر الناس على لبس إزار، ورداء من القطن الأبيض.

إنهم يتزرون: (والإزار هو الذي يستر الإنسان من وسطه إلى أسفل جسده).

ويرتدون: (والرداء هو الذي يستر النصف الأعلى من الإنسان) ببشكيرين.

عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ، ما يلبس المحرم من الثياب؟ فقال رسول الله ﷺ:

«لا تلبسوا القمص، ولا العمائم، ولا السراويلات ولا البرانس، ولا الخفاف، إلا أحد لا يجد النعلين فليلبس الخفين وليقطعهما أسفل من الكعبين، ولا تلبسوا من الثياب شيئاً مسه الزعفران ولا الورس»(١) اهـ .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، والزعفران والورس، نوعان يقصد بهما الطيب، قال ابن العربي: نبه على اجتناب الطيب وما يشبه في ملاءمة الشم، فيؤخذ منه تحريم أنواع الطيب على المحرم، وهو مجمع عليه فيما يقصد به التطيب.

أما إذا لم يجد ملابس الإحرام فإنه يلبس السراويل. . . فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يخطب يقول:

«السراويل لمن لم يجد الإزار، والخفان لمن لم يجد النعلين، يعني المحرم.

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من لم يجد نعلين فليلبس خفين، ومن لم يجد إزاراً فليلبس سراويل».

ويقول الإمام النووي في ذلك:

«السراويل لمن لم يجد الإزار، والخفان لمن لم يجد النعلين» يعني المحرم. . . هذا صريح في الدلالة للشافعي والجمهور في جواز «لبس السراويل للمحرم إذا لم يجد إزاراً.

ويجمع الإمام النووي بين الأحاديث بقوله:

«أما حديث ابن عمر فلا حجة فيه، لأنه ذكر فيه حالة وجود الإزار، وذكر في حديث ابن عباس وجابر حالة العدم فلا منافاة. والله أعلم». . .

أما ملابس إحرام المرأة: فإنها الملابس السابغة الساترة التي لا تغطي الوجه، ولا اليدين.

٦ ـ فإذا ما تم له ذلك يتوب إلى الله توبه خالصة نصوحاً، ليستقبل الإحرام طاهر النفس والجسد.

٧ ـ صلاة ركعتين بنية سنة الإحرام، فإن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما كان يقول:

«كان رسول الله ﷺ، يركع بذي الحليفة ركعتين».

٨ ـ وكل هذا إنما هو استعداد للإحرام، والإحرام هو أن ينوي

الحج بقلبه، إنه عقد النية على الحج، وإذا شاء قال:

«اللهم إني نويت الحج فيسره لي وتقبله مني» ـ أو ـ «اللهم إني نويت العمرة فيسرها لي وتقبلها مني». ثم يلبي: فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان إذا استوت به راحلته قائمة عند مسجد ذي الحليفة (ميقات المدينة المنورة) أهل فقال:

«لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك».

إن التلبية هي الشعار الدائم للحاج إلى أن يرمي الجمار، وقد بين العلماء معناها بعبارات تختلف في الألفاظ وتتحد في الجوهر... وقد ذكر الإمام النووي[1] بعض هذه المعاني، ونلخص ما ذكره فيما يلي:

التلبية: معناها: إجابة بعد إجابة ولزوماً لطاعتك.

وقيل: معناها: اتجاهي وقصدي إليك مأخوذاً من قولهم داري تلب دارك أي تواجهها.

وقيل: معناها: محبتي لك مأخوذ من قولهم: امرأة لبة إذا كانت محبة لولدها عاطفة عليه.

وقيل: معناها: إخلاص لك... مأخوذ من قولهم... حب لباب... إذا كان خالصاً محضاً... ومن ذلك لب الطعام ولبابه.

وقيل: معناها: أنا مقيم على طاعتك وإجابتك... مأخوذ من قولهم: لب الرجل بالمكان وألب إذا قام فيه قال ابن الأنباري: وبهذا قال الخليل..

---

(١) مسلم ج ٨ ص ٨٧.

قال القاضي: قيل هذه الإجابة لقوله تعالى لإبراهيم صلى الله عليه وسلم:
﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾.

وقال إبراهيم: في معنى لبيك: أي قرباً منك وطاعة، والإلباب: القرب.

وقال أبو نصر: معناه: أنا ملب بين يديك. أي خاضع ويرفع صوته بالتلبية: وقد ذكرنا كل هذه الأقوال ليتبين للقارىء المعنى الصحيح للتلبية، إنه كل هذه المعاني.

عن خلاد بن السائب عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبرائيل فأمرني أن آمر أصحابي أن يرفعوا أصواتهم بالاهلال والتلبية»[1].

وزاد ابن ماجه: «فإنها شعار الحج».
أما المرأة فإنها لا ترفع صوتها بالتلبية.

ويكثر من الإهلال:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:
«ما أهل مهل قط إلا بشر، ولا كبر مكبر قط إلا بشر.
قيل: يا رسول الله بالجنة؟
قال: نعم»[2].
وفي رواية للبيهقي قال: قال رسول الله ﷺ:
«ما أهل مهل قط إلا آبت الشمس بذنوبه».

---

(١) رواه مالك وأبو داود والنسائي وابن ماجه والترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وابن خزيمة في صحيحه.
(٢) رواه الطبراني في الأوسط بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح.

فإذا ما فعل ذلك، فقد صار محرماً، وعليه أن يلتزم بالتزامات المحرم:

أن لا يحلق شعره، وأن لا يستعمل الطيب، وأن لا يقص أظافره، وأن لا يغطي رأسه، وأن لا يتصل بزوجته.. والآية القرآنية تقول:

﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾.

ولا يقتل الصيد:

يقول سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾[1].

مما لا يحرم على المحرم:

قال ابن عباس رضي الله عنهما ـ فيما يروي البخاري رضي الله عنه ـ «يشم المحرم الريحان، وينظر في المرآة، ويتداوى، ويأكل الزيت والسمن».

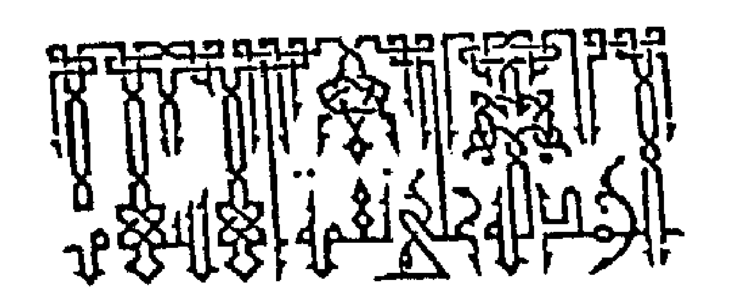
وقال عطاء: يتختّم ويلبس الهميان (الحرام).

وطاف ابن عمر رضي الله عنهما وهو محرم وقد حزم على بطنه بثوب. ولم تر عائشة رضي الله عنها بأساً بالحلى والثوب الأسود، والمورد، والخف للمرأة.

وقال إبراهيم: لا بأس أن يبدل ثيابه.

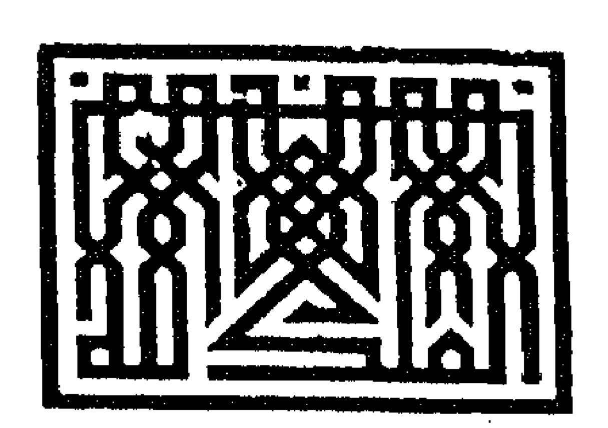
---

(١) سورة المائدة آية: ٩٥.



الفصل الخامس

مكة.. فضلها والمناسك فيها



«مكــة»

وقف رسول الله ﷺ، على مشارف مكة ليلة الهجرة، ونظر إلى المدينة المباركة، وقال:

«إنك لخير أرض الله عز وجل، وأحب بلاد الله تعالى إليّ، ولولا أني أخرجت منك لما خرجت».

وقالها في عودته إليها.

وكيف لا؟... والنظر إلى البيت عبادة، والحسنات فيها مضاعفة...

حرمة مكة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

«لما فتح الله تعالى على رسوله ﷺ مكة، قام رسول الله ﷺ في الناس، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال:

«إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسوله والمؤمنين، وأنها لم تحل لأحد كان قبلي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار، وأنها لن

تحل لأحد بعدي فلا ينفر صيدها، ولا يختلى شوكها، ولا تحل ساقطتها إلا لمنشد، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين».

فقال العباس: إلا الأذخر.

فقام أبو شاه «رجل من أهل اليمن» فقال:

اكتبوا لي يا رسول الله.

فقال رسول الله ﷺ:

«اكتبوا لأبي شاه».

قال الوليد:

فقلت للأوزاعي: ما قوله: «اكتبوا لي يا رسول الله؟» قال:

هذه الخطبة التي سمعها من رسول الله ﷺ(١).

وقال رسول الله ﷺ ـ فيما رواه ابن عباس ـ يوم الفتح ـ فتح مكة:

«إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وأنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي. ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا لمن عرفها، ولا يختلى خلاها.. فقال العباس:

يا رسول الله!... إلا الأذخر، فإنه لقينهم ولبيوتهم.

فقال: إلا الأذخر».

ويروي الإمام البخاري ما يلي:

باب فضل الحرم... وقوله تعالى:

﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾(٢).

---

(١) متفق عليه.

(٢) سورة النمل/ الآية: ٩١.

وقوله جل ذكره:

﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وعن علي بن عبد الله ـ بسنده ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

قال رسول الله ﷺ: يوم فتح مكة:

«إن هذا البلد حرمه الله، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها».

الصلاة في الحرمين:

عن ابن الزبير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من صلاة في مسجدي هذا بمائة صلاة»[2].

المعاصي في مكة:

﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ «الحج/ ٢٥».

يقول ابن مسعود رضي الله عنه:

«ما من بلد يؤاخذ فيها العبد بالنية قبل العمل إلا مكة، وتلا قوله تعالى:

---

(١) سورة القصص/ الآية: ٥٧.

(٢) رواه أحمد وصححه ابن حبان.

﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1].

أي أنه على مجرد الإرادة: إرادة الظلم، والتعدي على أي وجه كان. يقول الإمام الغزالي:

«ويقال إن السيئات تضاعف بها كما تضاعف الحسنات».

وكان ابن عباس رضي الله عنه يقول:

«الاحتكار بمكة من الإلحاد في الحرم، وقيل: الكذب أيضاً».

وقال ابن عباس:

«لأن أذنب سبعين ذنباً في غير مكة. أحب إليّ من أن أذنب ذنباً واحداً في مكة».

الاتجاه إلى البيت الحرام:

فإذا ما وصل بتوفيق الله إلى مكة، واطمأن إلى متاعه، اتجه إلى البيت الحرام، ويدخل البيت قائلاً:

«باسم الله، والله أكبر،

باسم الله، وبالله، ومن الله، وإلى الله، وعلى ملة رسول الله ﷺ».

ويقول:

«اللهم زد هذا البيت تشريفاً، وتعظيماً، وتكريماً، ومهابة، وزد من شرفه وكرمه، ممن حجه، أو اعتمره، تشريفاً وتكريماً، وتعظيماً وبراً».

ويقول:

«اللهم أنت السلام، ومنك السلام، فحينا ربنا بالسلام».

---

(١) سورة الحج/ الآية: ٢٥.

ويبدأ الطواف: يبدأ طواف العمرة، إن كان أحرم بالعمرة وطواف القدوم إن كان أحرم بالحج.

ويبدأ الطواف مستلماً الحجر الأسود، أو مقبلاً له، أو مستقبلاً له، مشيراً إليه إن لم يتمكن من تقبيله، أو لمسه بيده.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال له:
«يا عمر: إنك رجل قوي، لا تزاحم على الحجر فتؤذي الضعيف، إن وجدت خلوة فاستلمه، وإلا فاستقبله وكبر»[1].

عن أبي يعفور العبدي واسمه وقدان قال: سمعت رجلاً من خزاعة حين قتل ابن الزبير وكان أميراً على مكة يقول:

قال رسول الله ﷺ لعمر:
يا أبا حفص: إنك رجل قوي، فلا تزاحم على الركن فإنك تؤذي الضعيف، ولكن إن وجدت خلوة فاستلمه وإلا فكبر وامض[2].

ويطوف مبتدئاً من الحجر الأسود سبعة أشواط، مختتماً بالحجر الأسود في النهاية.

ويبتدىء الطواف في الأول، وفي كل مرة، وهو مستقبل للحجر الأسود، قائلاً في كل شوط:

«بسم الله، والله أكبر. . باسم الله، وبالله، ومن الله، وإلى الله، وعلى ملة رسول الله ﷺ».

ويدعو الله أثناء طوافه بما شاء من الدعاء، ويكثر من الاستغفار، ويؤكد العزم على التوبة.

---

(١) ابن كثير جـ ٤ ص ٣١٨.
(٢) ابن كثير جـ ٤ ص ٣١٨.

ولقد كان رسول الله ﷺ يكثر من قوله تعالى:

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

ويمكن للطائف أن يكرر:

﴿ رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[2].

ويكرر:

﴿ رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[3].

ويكرر أيضاً:

﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴾[4].

ويكرر أيضاً:

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾[5].

وليس هناك دعاء معين محتم لكل شوط من أشواط الطواف، وخير ما يدعى به إنما هو الدعاء القرآني أو الدعاء المأثور عن رسول الله ﷺ.

ومن الأدعية الطيبة بأن يقول الحاج حينما يستقبل الحجر الأسود:

---

(١) سورة البقرة/ الآية: ٢٠١.

(٢) سورة الأعراف/ الآية: ٢٣.

(٣) سورة الممتحنة/ الآية: ٤.

(٤) سورة الحشر/ الآية: ١٠.

(٥) سورة البقرة/ الآية: ٢٨٦.

«باسم الله، والله أكبر. . اللهم إيماناً بك، وتصديقاً بكتابك، ووفاء بعهدك، واتباعاً لسنة نبيك ورسولك سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ» فإذا ما حاذى باب الكعبة قال:

«اللهم إن البيت بيتك، والحرم حرمك، والأمن أمنك، وهو مقام العائذ بك من النار ـ مشيراً إلى مقام إبراهيم عليه السلام، وهو على يمينه ـ فأعذني من النار على فتحة الحجر بعد باب الكعبة قال:

فإذا ما وصل إلى الركن العراقي ـ وهو على يساره على فتحة الحجر بعد باب الكعبة قال:

«اللهم إني أعوذ بك من الشك، وسوء الأخلاق، وسوء المنقلب في الأهل والمال والولد».

فإذا ما حاذى الميزاب ـ الذي يطل على حجر إسماعيل من فوق الكعبة ـ قال:

«اللهم أظلمني تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلّك واسقنا من كأس سيدنا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ شربة هنيئة مريئة لا نظمأ بعدها أبداً، ياذا الجلال والإكرام».

فإذا ما وصل إلى الركن الشامي قال:

«اللهم اجعله حجاً مبروراً، وذنباً مغفوراً، وسعياً مشكوراً، وعملاً مقبولاً، وتجارة لن تبور».

وعند الركن اليماني يقول:

«اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر، ومن عذاب القبر، وأسألك العفو والعافية، في الدين والدنيا والآخرة».

وبين الركن اليماني والحجر الأسود، يقول:

«ربنا آتنا في الدّنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار».

ويستمر هكذا في كل دورة من دورات الطواف.

وبعد أن ينتهي الطواف يصلي ركعتين بنية سنة الطواف، يصليهما في مقام إبراهيم، فإن لم تتيسر له الصلاة في مقام إبراهيم صلاهما في أي مكان آخر من البيت.

ثم يتوجه إلى بئر زمزم، ويشرب منه، وماء زمزم لما شرب له، فيدعو عند شربه بما شاء.

ثم يتوجه إلى السعي، مبتدئاً من الصفا، صاعداً فوقه، مستقبلاً الكعبة، بادئاً باسم الله، والله أكبر.

ويتجه إلى المروة فيصعد فوقها، ويستقبل الكعبة، ويبتدىء النزول باسم الله، والله أكبر، متجهاً إلى الصفا.

وهكذا إلى أن يتم سبعة أشواط ما بين الصفا والمروة ويدعو في أثناء ذلك بما شاء من الدعاء.

ومن الأدعية المأثورة في ذلك:

«رب اغفر وارحم، واعف عما تعلم، إنك أنت الأعز الأكرم».

ولقد ورد في كتب السنة أن رسول الله ﷺ حينما دنا من الصفا قرأ:

﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾.

ثم قال: ابدأ بما بدأ الله به.

فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة، فوحد الله وكبره وقال:

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

ثم دعا بعد ذلك فقال مثل هذا ثلاث مرات.

ثم نزل، حتى إذا انصبت قدماه في الوادي رمل، حتى إذا صعد مشى حتى أتى المروة فرقي عليها، حتى نظر إلى البيت فقال عليها كما قال على الصفا[1].

وعن حبيبة بنت أبي تجرأة قالت:

دخلت دار حصين في نسوة من قريش، والنبي ﷺ يطوف بين الصفا والمروة، قالت:

وهو يسعى يدور به إزاره من شدة السعي وهو يقول لأصحابه: «اسعوا إن الله كتب عليكم السعي»[2].

والمراد بالسعي هاهنا: هو الذهاب من الصفا إلى المروة ومنها إليها. وليس المراد بالسعي هاهنا الهرولة والإسراع، فإن الله لم يكتبه علينا حتماً. بل لو مشى الإنسان على هيئته في السبع الطوافات بينهما، ولم يرمل في المسير، أجزأه ذلك عند جماعة العلماء لا نعرف بينهم اختلافاً في ذلك.

وقد نقله الترمذي رحمه الله عن أهل العلم، ثم قال: حدثنا يوسف بن عيسى، حدثنا ابن فضيل، عن عطاء بن السائب، عن كثير بن جهمان قال:

رأيت ابن عمر يمشي في المسعى فقلت: أتمشي في السعي بين الصفا والمروة؟

---

(١) سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٣١٩.

(٢) سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٣٢٠.

فقال: لئن سعيت فقد رأيت رسول الله ﷺ يسعى ولئن مشيت فقد رأيت رسول الله ﷺ يمشي، وأنا شيخ كبير»[1].

وقال أبو داود: حدثنا أبو سلمة موسى، حدثنا حماد، أنبأنا أبو عاصم الغنوي عن أبي الطفيل قال: قلت لابن عباس:

«يزعم قومك أن رسول الله ﷺ قد رمل بالبيت وأن ذلك من سنته» قال:

«صدقوا وكذبوا»... فقلت: «ما صدقوا وما كذبوا؟» قال:

«صدقوا: رمل رسول الله، وكذبوا: ليس بسنة، إن قريشاً قالت زمن الحديبية: دعوا محمداً وأصحابه حتى يموتوا موت النغف ـ النغف: الدود ـ وهو يضرب للمستحقر ـ فلما صالحوه على أن يحجوا من العام المقبل فيقيموا بمكة ثلاثة أيام، فقدم رسول الله ﷺ، والمشركون من قبل قعيقعان، فقال رسول الله لأصحابه:

«ارملوا بالبيت ثلاثاً، وليس بسنة» قلت:

«يزعم قومك أن رسول الله طاف بين الصفا والمروة على بعير، وأن ذلك سنة... قال: «صدقوا وكذبوا» قلت:

ما صدقوا وما كذبوا؟ قال:

صدقوا: قد طاف رسول الله ﷺ.

وكذبوا: ليست بسنة... كان الناس لا يدفعون عن رسول الله ﷺ، ولا يصرفون عنه، فطاف على بعير ليسمعوا كلامه، وليروا مكانه، ولا تناله أيديهم[2].

---

(١) سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٣٢٠.

(٢) هكذا رواه أبو داود.

ويمكن أن يدعو بما سبق أن ذكرناه في أدعية الطواف.

وحينما يتم السعي بين الصفا والمروة يكون الحاج بذلك قد أتم العمرة، فليست العمرة إلاّ طوافاً وسعياً.

ويتحلل الحاج من عمرته، فيحلق ـ إذن ـ رأسه، أو يقص من شعره. ويحل له ـ إذن ـ كل شيء كان محظوراً: الطيب، ولبس المخيط، وغير ذلك.

ويسمى هذا بالتمتع.

وعلى المتمتع شكر الله تعالى... وشكر الله على التمتع هو ما بينه سبحانه بقوله:

﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾(١).

وفي اليوم الثامن من ذي الحجة، ويسمى يوم التروية يحرم من جديد، بالطريقة التي بيناها سابقاً.

هذا إذا كان قد تمتع، أما إذا كان قد أحرم بالحج من قبل، فلا يحرم من جديد، وإنما يذهب إلى منى ليبيت فيها.

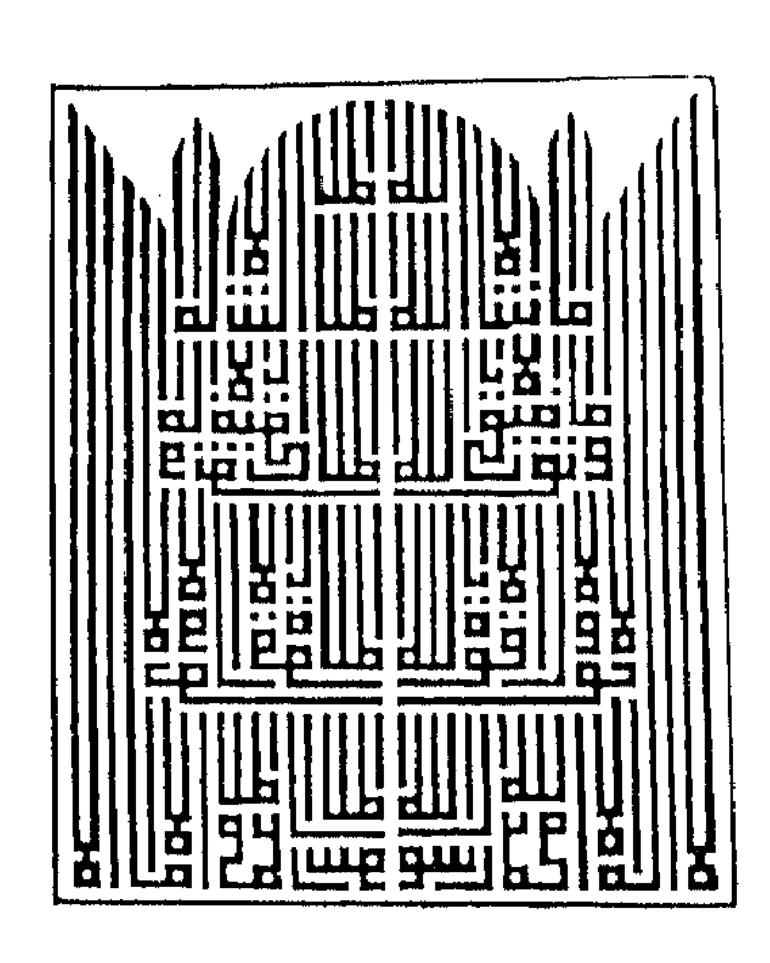
روى أبو داود بسنده أن رسول الله ﷺ صلى الظهر يوم التروية والفجر يوم عرفة بمنى.

وهذا المبيت: هو سنة، فإن شاء ذهب إلى منى متبعاً للسنة وإن شاء أقام بمكة ولا إثم عليه.

فإذا ما كان اليوم التاسع توجه من منى أو من مكة إلى عرفات.

---

(١) سورة البقرة/ الآية: ١٩٦.



الفصل السادس

إلى عرفات



يوم عرفة هو التاسع من ذي الحجة.

وعرفات: هو المكان المرتفع المنبسط على اثني عشر ميلاً من مكة، وهو موقف الحاج في ذلك اليوم، وهو اسم في لفظ الجمع.

سميت بذلك:

١ ـ لأن آدم وحواء تعارفا بها.

٢ ـ أو لقول جبريل لإبراهيم عليهما السلام لما علمه المناسك... أعرفت؟

قال: عرفت.

٣ ـ أو لأنها مقدسة معظمة كأنها عرفت أي طيبت... والعرف: الريح الطيبة[1] ومن أجل ما يروى في سبب التسمية أنه لتعرف العباد إلى الله بالعبادات والأدعية.

فضل يوم عرفة:

عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) لقد قيل في تفسير قوله تعالى ﴿عرفها لهم﴾ طيبها لهم.

«ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة»[1].

وفضل يوم عرفة مشهور: فيه تنزل الرحمة أرسالاً أرسالاً، وفيه يتجاوز الله عن الذنوب صغرت أو عظمت.

ولقد روى الإمام مالك بسنده أن رسول الله ﷺ قال:
«ما رؤي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر، ولا أحقر، ولا أغيظ منه في يوم عرفة».

وما ذاك إلّا لما رأى من تنزل الرحمة، وتجاوز الله عن الذنوب العظام.

وفي مسند الفردوس أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال:
«أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفة فظن أن الله تعالى لم يغفر له».

ويوم عرفة هو من الأيام العشر الأولى من ذي الحجة، وفي هذه الأيام العشر الأول يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما رواه الإمام البخاري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه:

«ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام ـ يعني أيام العشر ـ».

نرى المسلمين يوم عرفة يجتمعون وقد اختلفت أجناسهم وألوانهم ولغاتهم، لا يجمعهم إلّا الدين، ولا يـربطهم إلّا العبـودية لله رب العالمين.

الكل في مكان واحد وزمان واحد، يبتهلون إلى ربهم ليغفر لهم، ويقبل حجهم، ويتم نعمته عليهم.

---

(١) رواه مسلم.

الكل راج خاشع، داع مبتهل.

إذا كان يوم عرفة يوم جمعة:

قال بعض السلف فيما رواه الإمام الغزالي في كتابه الخالد «إحياء علوم الدين»:

«إذا وافق يوم عرفة يوم جمعة، غفر لكم أهل عرفة، وهو أفضل يوم في الدنيا، وفيه حج رسول الله ﷺ، حجة الوداع وكان واقفاً إذ نزل قوله عز وجل:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾.

قال أهل الكتاب: لو أنزلت هذه الآية علينا لجعلناها يوم عيد، فقال عمر رضي الله عنه:

«أشهد لقد أنزلت هذه الآية في يوم عيدين اثنين: يوم عرفة، ويوم جمعة، على رسول الله ﷺ، وهو واقف بعرفة.

قال الإمام أحمد: حدثنا جعفر بن عون، حدثنا أبو العميس، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت اتخذنا ذلك اليوم عيداً.

قال: وأي آية هي؟ قال: قوله تعالى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾.

فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ

والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ، عشية عرفة في يوم جمعة[1].

وقال ﷺ:

«اللهم اغفر للحاج، ولمن استغفر له الحاج».

الحج عرفة:

ولقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«الحج عرفة».

ولهذه الكلمة مغزاها ومعناها وذلك:

إن مناسك الحج يمكن في بعضها التقديم والتأخير، ويمكن في بعضها الآخر أن يستعاض عنه بفدية أو بإنابة وتوكيل، عدا الوقوف بعرفة، فإن له وقتاً محدداً إذا مر ولم يقم الإنسان فيه بالوقوف بعرفة فإن حجه يكون قد بطل.

ومن أجل ذلك قال رسول الله ﷺ:

«الحج عرفة».

ويمكن أن ننظر إلى قوله ﷺ من زاوية أخرى، هي أن ثمرة الحج إنما تجتنى في عرفة، ففيه تجتمع الأرواح، وقد تزكت بالتوبة والإحرام والطواف والسعي، تتجه إلى الله في ضراعة، وتدعوه سبحانه في خضوع، فتفيض الرحمات، وتنزل على العباد الذين يدعون الله سبحانه وتعالى، طالبين المغفرة:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[2].

---

(١) سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٣٠٣.

(٢) سورة البقرة/ الآية: ١٨٦.

ومعنى «الحج عرفة» أيضاً: أنه تعرف على الله سبحانه وتعالى مصدر الخير كل الخير، ومصدر النعمة كل النعمة، ومصدر الكمال على المعنى الصحيح للكمال الإنساني.

إن الذي يتعرف على الله: يصبح من الكمال الإنساني في الذروة.

وما كانت طريقة التعرف على الله في يوم من الأيام: قراءة آراء الفلاسفة، وهي متضاربة متصارعة.

وإنما سبيل التعرف إلى الله: توبة نصوح واستجابة مخلصة، وطواف بالبيت في تضرع وابتهال إلى رب البيت وسياحة من الصفاء إلى الري، ومن ري يزداد إلى صفاء يصفو، فإذا ما تزكت النفس بكل ذلك يفيض الله سبحانه وتعالى عليها نوراً يعرفها به، فتتعرف عليه، وتلتزمه، وتقف عنده، وتنتهي إليه.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ «النجم/ ٤٢».

وليس هناك منتهى دون الله سبحانه وتعالى، وكل ما دونه منتهى مزيف فاسد، أما المنتهى الحق: فهو الله سبحانه وتعالى:

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

موقف رسول الله ﷺ في عرفات:

يستحب أن يقف عند الصخرات المذكورات في الآثار، وهي صخرات مفترشات في أسفل جبل الرحمة وهو الجبل الذي يتوسط أرض عرفات، فهذا هو الموقف المستحب.

وأما ما اشتهر بين العوام من الاعتناء بصعود الجبل وتوهمهم أنه لا يصح الوقوف إلاّ فيه فغلط، بل الصواب جواز الوقوف في كل جزء من أرض عرفات.

وأن الفضيلة في موقف رسول الله، صلى الله عليه وسلم، عند الصخرات، فإن عجز فليقرب منه بحسب الإمكان.

عرفة كلها موقف، ومنى كلها منحر:

عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«نحرت هاهنا، ومنى كلها منحر، فانحروا في رحالكم، ووقفت هاهنا، وعرفة كلها موقف، ووقفت هاهنا، وجمع كله موقف»[1].

صوم يوم عرفة

فيما يتعلق بصوم يوم عرفة، فإن الأمر يختلف بالنسبة لمن كان مؤدياً للحج، ومن كان مقيماً في بلده، فالسنة فيما يتعلق بالقيم ببلده، أن يصوم، فقد روى الإمام مسلم بسنده عن أبي قتادة أن رسول الله ﷺ، سئل عن صوم عرفة فقال:

يكفر السنة الماضية والباقية.

هذا بالنسبة للمقيم.

أما بالنسبة للحاج، فالسنة أن يفطر، فلقد روى الشيخان بسندهما عن أم الفضل بنت الحارث أن أناساً تماروا ـ أي اختلفوا ـ عندها يوم عرفة في صيام رسول الله ﷺ:

فقال بعضهم: هو صائم.

وقال بعضهم: ليس بصائم.

قالت: «فأرسلت إليه بقدح لبن وهو واقف على بعيره فشرب».

---

(١) رواه مسلم.

وإفطار الحاج إنما هو من أجل أن يقوى على العبادة وعلى المجاهدة في هذا اليوم المبارك.

الدعاء يوم عرفة:

روى الترمذي من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال:

«أفضل الدعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي:

«لا إله إلّا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير».

وللإمام أحمد أيضاً عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده، قال:

«كان أكثر دعاء النبي، صلى الله عليه وسلم، يوم عرفة:

«لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير».

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

«دعائي ودعاء الأنبياء قبلي عشية عرفة:

لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير».

وعن علي رضي الله عنه قال:

كان أكثر ما دعا به رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يوم عرفة في الموقف:

«اللهم لك الحمد كالذي نقول، وخير مما نقول.

اللهم لك صلاتي ونسكي، ومحياي، ومماتي، ولك ربّ تراثي.

أعوذ بك من عذاب القبر، ووسوسة الصدر، وشتات الأمر.

اللهم إني أعوذ بك من شر ما تهديه الريح».
وقال ﷺ:
إن أكثر دعاء من كان قبلي، ودعائي في يوم عرفة أن أقول:
«لا إله إلّا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.

اللهم اجعل في بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي قلبي نوراً.
اللهم اشرح لي صدري، ويسر لي أمري.
اللهم إني أعوذ بك من وسواس الصدر، وشتات الأمر، وشر فتنة القبر، وشر ما يلج في الليل، وشر ما يلج في النهار، وشر ما تهب به الرياح، وشر بوائق الدهر».

وعن ابن عباس قال:
كان فيما دعا به رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في حجة الوداع:

اللهم إنك تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سري وعلانيتي، ولا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير. الوجل المشفق، المقر المعترف بذنبه.

أسألك مسألة المسكين، وابتهل إليك ابتهال الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عبرته، وذل لك جسده، ورغم لك أنفه.

اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقياً، وكن رؤوفاً رحيماً، يا خير المسؤولين ويا خير المعطين».

عن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال، سمعت رسول الله ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1].

وأنا على ذلك من الشاهدين يا رب[2].

وينبغي لمن وقف بعرفة أن يدعو بكل هذه الأدعية التي سمع، فجزاهم الله خيراً على نقلهم ما سمعوه عن الرسول ﷺ.

خطبة الرسول في حجة الوداع

قال ابن إسحاق:

«ثم مضى رسول الله ﷺ، على حجه، فأرى الناس مناسكهم، وأعلمهم سنن حجهم، وخطب الناس خطبته التي بين فيها ما بين، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أيها الناس اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل رباً موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون.

قضى الله أنه لا ربا، وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

---

(١) آل عمران: ١٨.

(٢) سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٣٤٩.

أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ولكنه يطمع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس: إنما النسيء زيادة في الكفر، يضل به الذين كفروا، يحلونه عاماً، ويحرمونه عاماً، ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان.

واستوصوا بالنساء خيراً فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهنّ شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله.

فاعقلوا أيها الناس قولي واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين أخوة، فلا يحل لامرىء من أخيه إلّا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم.. اللهم هل بلغت.

فذكر لي أن الناس قالوا: اللهم نعم.

فقال رسول الله ﷺ:

«اللهم اشهد».

وعن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يوم عرفة:

«أيها الناس إن الله تطول عليكم في هذا اليوم، فغفر لكم إلّا التبعات فيما بينكم، ووهب مسيئكم لمحسنكم، وأعطى محسنكم ما سأل، فادفعوا باسم الله».

ومن فاته الوقوف حتى طلع الفجر يوم النحر فقد فاته الحج.

وعن عروة بن مفرس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من شهد صلاتنا هذه ـ يعني بالمزدلفة ـ فوقف معنا حتى ندفع وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً، فقد أتم حجه، وقضى تفثه»[1].

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب بعرفات:

«من لم يجد النعلين فليلبس الخفين، ومن لم يجد إزاراً فليلبس السراويل للمحرم»[2].

وعن عمرو بن خارجة قال: بعثني عتاب بن أسيد إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهو واقف بعرفة في حاجة، فبلغته، ثم وقفت تحت ناقته وإن لعابها ليقع تحت رأسي، فسمعته يقول:

«أيها الناس إن الله أدى إلى كل ذي حق حقه، وأنه لا تجوز وصية لوارث. والولد للفراش، وللعاهر الحجر، ومن ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة، والناس أجمعين، لا يقبل الله له صرفاً، ولا عدلاً»[3].

وقال البخاري حدثنا عبد الله بن مسلمة، حدثنا مالك، عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله، أن عبد الملك بن مروان كتب إلى الحجاج بن يوسف أن يأتم بعبد الله بن عمر في الحج، فلما كان يوم عرفة جاء ابن عمر، وأنا معه حين زاغت الشمس ـ أو زالت الشمس ـ فصاح عند فسطاطه: أين هذا؟

فخرج إليه فقال ابن عمر: الرواح. فقال: الآن؟ قال: نعم. فقال أنظرني حتى أفيض على ماء[4].

---

(١) رواه الخمسة، وصححه الترمذي وابن خزيمة. ومعنى قضى تفثه أي اغتسل وتطهر من الأوساخ.

(٢، ٣، ٤) سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٣٤٢.



الفصل السابع

إلى مَنِ



يقول الله تعالى:

﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ﴾[1].

والإفاضة من عرفات تكون بعد غروب الشمس في اليوم التاسع من ذي الحجة.

ورد في صحيح الإمام مسلم في وصف حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه:

«لم يزل واقفاً حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلاً، حتى غاب القرص، وأردف أسامة خلفه».

ودفع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقد شنق للقصواء الزمام، حتى أن رأسها ليصيب مورك رحله، وهو يقول بيده اليمنى:

أيها الناس السكينة، السكينة...

حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء، بأذان واحد

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.

وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئاً، ثم اضطجع رسول الله ﷺ، حتى طلع الفجر، وصلى الفجر (بالمزدلفة) حتى تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء (ناقته ﷺ) حتى أتى المشعر الحرام (وهو جبل معروف في المزدلفة) فاستقبل القبلة، فدعاه (أي دعا الله سبحانه وتعالى)، وكبره وهلله، ووحده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً (أي أسفر الصبح) فدفع قبل أن تطلع الشمس، وأردف الفضل بن العباس. . .

وصل رسول الله ﷺ إلى جمرة العقبة.

عن جابر رضي الله عنه قال:

«رمى رسول الله ﷺ، الجمرة يوم النحر ضحى، وأما بعد ذلك (في الأيام التالية) فإذا زالت الشمس».

وعن ابن عباس وأسامة بن زيد رضي الله عنهما قالا:

«لم يزل النبي، صلى الله عليه وسلم، يلبي حتى رمى جمرة العقبة».

وعن ابن عباس عن الفضل قال: أفضت مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من عرفات، فلم يزل يلبي حتى رمى جمرة العقبة يكبر مع كل حصاة، ثم قطع التلبية مع آخر حصاة.

وعن قدامة بن عبد اللّه ـ وهو ابن عمار رضي الله عنه ـ قال:

«رأيت رسول الله ﷺ يرمي الجمرة يوم النحر على ناقة صهباء، لا ضرب، ولا طرد ولا إليك إليك».

وكان رسول الله ﷺ يكبر مع كل حصاة.

ولما رمى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الجمار، نحر الهدي.

عن المسور بن مخرمة رضي الله عنه، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، نحر قبل أن يحلق، وأمر أصحابه بذلك.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «رمى رسول الله، صلى الله عليه وسلم جمرة العقبة ثم ذبح ثم حلق.

وعن ابن عباس أنه قال: «إذا رميتم جمرة العقبة فقد حللتم من كل شيء كان عليكم حراماً إلّا النساء حتى تطوفوا بالبيت: فقال رجل: والطيب يا أبا العباس؟ فقال له: إني رأيت رسول الله، صلى الله عليه وسلم يضمخ رأسه بالمسك، أفطيب هو أم لا؟»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت:

قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إذا رميتم وحلقتم فقد حل لكم الطيب وكل شيء إلّا النساء»[2].

ثم ركب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأفاض إلى البيت فصلى بمكة الظهر، وطاف، ثم عاد إلى منى، وتحلل من إحرامه.

هذا الطواف يمكن أن يقوم به الإنسان يوم العيد للتحلل من إحرامه، ويمكن أن يؤخره إلى ما بعد الانتهاء من أيام الرمي.

أما فيما يتعلق بأيام الرمي فإنها يوم العيد، وفيه يرمي الإنسان جمرة العقبة فقط، أما في اليوم الثاني فإنه يرمي الجمرات الثلاث، وفي اليوم الثالث يرمي الجمرات الثلاث أيضاً، ثم له بعد ذلك أن يتعجل الذهاب إلى مكة، وله أن يمكث يوماً آخر، يرمي فيه الجمرات الثلاثة أيضاً. يقول سبحانه:

---

(١) سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٣٧٩.

(٢) رواه أحمد وأبو داود، وفي إسناده ضعف.

﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ(*) فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(١)

وإلى هنا، أي بعد الرمي وطواف الإفاضة، تنتهي أعمال الحج فيفارق الحاج منى إلى مكة.

ثم يقيم الحاج بمكة داعياً مستغفراً، منيباً، طائفاً، متضرعاً إلى الله سبحانه وتعالى، إلى أن يحين الذهاب إلى المدينة المنورة، أو إلى بلده إن كان قد زار وتشرف بالسلام على رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

وكما خطب رسول الله، صلى الله عليه وسلم في عرفات، فإنه خطب في منى، وقد حفظ بعض الصحابة من خطبته ما لم يحفظ الآخرون: ونحن نورد هنا بعضاً من مرويات الصحابة رضوان الله عليهم، ويبدو أن بعض الأمور ذات الأهمية البالغة التي ذكرها رسول الله، صلى الله عليه وسلم في خطبته في عرفات، قد أعادها في منى وذلك لأهميتها.

عن أبي حرة الرقاشي عن عمه قال: «كنت آخذاً بزمام ناقة رسول الله، صلى الله عليه وسلم في أوسط أيام التشريق أذود عنه الناس. فقال: «يا أيها الناس أتدرون في أي شهر أنتم، وفي أي يوم أنتم، وفي أي بلد أنتم؟ قالوا في يوم حرام، وشهر حرام، وبلد حرام، قال: فإن دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، إلى أن تلقوه.

ثم قال: اسمعوا مني تعيشوا، ألا لا تظلموا، ألا لا تظلموا، ألا لا تظلموا، إنه لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفس منه. ألا إن كل

(*) بعد العيد.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٣.

دم، ومال ومأثرة كانت في الجاهلية تحت قدمي هذه إلى يوم القيامة، وأن أول دم يوضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل.

ألا إن كل ربا في الجاهلية موضوع، وإن الله قضى أن أول ربا يوضع ربا العباس بن عبد المطلب، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون، ولا تظلمون.

ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، ثم قرأ:

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ «التوبة/٣٦».

ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون، ولكنه في التحريش بينكم.

واتقوا الله في النساء، فانهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً، وإن لهن عليكم حقاً، ولكم عليهن حق، ألا يوطئن فرشكم أحداً غيركم، ولا يأذن في بيوتكم لأحد تكرهونه فإن خفتم نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف وإنما اتخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ألا، ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

وبسط يده وقال: ألا هل بلغت؟ ألا هل بلغت؟ ثم قال: ليبلغ الشاهد الغائب فإنه رب مبلغ أوعى من سامع(١).

---

(١) سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٤٠٢.

عن يحيى بن الحصين قال، عن جدته أم الحصين قالت: حججت مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم حجة الوداع، فرأيت أسامة وبلالاً، أحدهما آخذ بخطام ناقة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والآخر رافع ثوبه يستره من الحر حتى رمى جمرة العقبة. قالت: فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم قولاً كثيراً. ثم سمعته يقول:

«إن أمر عليكم عبد مجدع ـ حسبتها قالت أسود ـ يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا»(١).

وعن سلمة بن قيس الأشجعي قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع:

«إنما هن أربع: لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا ولا تسرقوا»(٢).

وعن سليمان بن عمرو عن أبيه قال: شهدت رسول الله، صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع يقول: «أيها الناس. ثلاث مرات. أي يوم هذا؟ قالوا: يوم الحج الأكبر.

قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا ولا يجن جان على ولده، ألا إن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا، ولكن سيكون له طاعة في بعض ما تحتقرون من أعمالكم فيرضى، ألا وإن كل ربا من ربا الجاهلية يوضع، لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون، ولا تظلمون»(٣).

وعن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم،

---

(١) سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٣٩١.
(٢) سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٣٩٢.
(٣) سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٣٩٤.

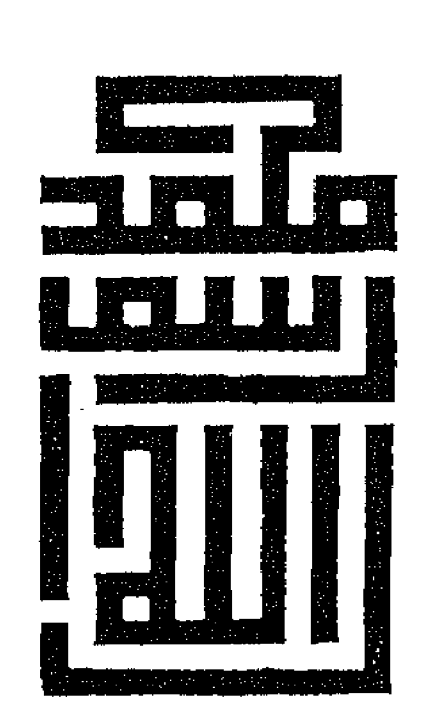
وهو يومئذ على الجدعاء واضع رجليه في الغرز، يتطاول ليسمع الناس. فقال، بأعلى صوته: ألا تسمعون؟.

فقال رجل من طوائف الناس: يا رسول الله ماذا تعهد إلينا؟ فقال:

«اعبدوا ربكم، وصلوا خمساً، وصوموا شهـركم، وأطيعوا إذا أمرتم، تدخلوا جنة ربكم»[١].

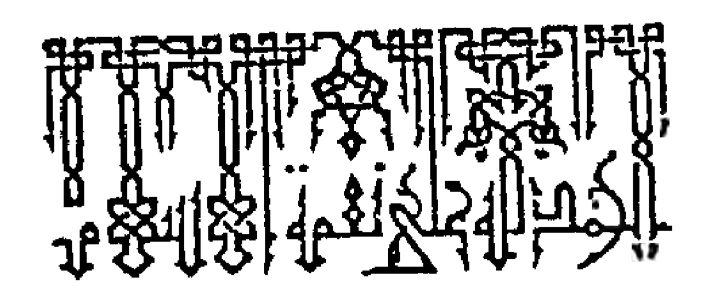
---

(١) سيرة ابن كثير جـ ٤ ص ٣٩٥.


محمد رسول الله

الفصل الثامن

من مسائل الحج



اللهم حجة لا رياء فيها:

ليس الحج ترفاً، ولا سياحة استمتاعية، ولقد ضرب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، المثل في التقشف في الحج، وسار على نسقه من اتبع هديه.

عن أنس، أن النبي ﷺ: حج وسلم على رحل رث، وقطيفة تساوي ـ أو لا تساوي ـ أربعة دراهم، فقال: «اللهم حجة لا رياء فيها»[1].

عن أنس أن النبي ﷺ: حج على رحل رث، وتحته قطيفة وقال: «حجة لا رياء فيها، ولا سمعة»[2].

وعن بشر بن قدامة الضبابي، قال: أبصرت عيناي حبيبي رسول الله، صلى الله عليه وسلم واقفاً بعرفات مع الناس على ناقة له حمراء

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن كثير جـ ٤ ص ٢١٩ والحديث رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده والبزار بنحوه.

(٢) انظر السيرة النبوية لابن كثير جـ ٤ ص ٢١٨ والحديث رواه البزار في مسنده.

قصواء تحته قطيفة بولانية، وهو يقول: «اللهم اجعلها غير رياء، ولا مباهاة، ولا سمعة» والناس يقولون: هذا رسول الله، صلى الله عليه وسلم[1].

عن ثمامة قال: حج أنس على رحل رث ولم يكن شحيحاً[2].

نفقات الحج:

الحج سواء أكان حج الفريضة، أم كان حج نافلة، وهو قربى إلى الله سبحانه وتعالى، والقربى يجب أن يتحرى الإنسان فيها أن تكون بمال حلال.

ومال الزوج بالنسبة للزوجة حلال إذا كان بإذنه، وعن رضا منه، وما لها بالنسبة له حلال إذا كان عن رضا منها وبإذنها.

والأمر كذلك فيما يتعلق بمال الوالد بالنسبة للولد، ومال الولد بالنسبة للوالد.

أما المال المهدى من أجنبي فلا يجوز للإنسان أن يحج منه إذ المال من الشبه: فلا يكون المال المهدى من تاجر مخدرات مثلاً، أو ممن يتجر في الخمور، وما دام الله سبحانه وتعالى، لا يوجب الحج على غير المستطيع فإن في سعة رحمة الله سعة لمن لم يجد المال الحلال الصافي، والله طيب لا يقبل إلاّ طيباً.

حج من عليه دين:

ما حكم من حج بيت الله، وعليه دين، فهل هي حجة مقبولة، أم مردودة؟

---

(١) اليرة النبوية لابن كثير جـ ٤ ص ٢٢٠.
(٢) رواه الإمام البخاري.

يقول الله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾[1] .

ومن الاستطاعة : أن توجد النفقة دون أن يكون على الإنسان دين للآخرين ، فإذا كان على الإنسان دين ، يستغرق ما معه من نقود ، أو يستغرق جزءاً من نفقات الحج ، فإنه غير مستطيع ، فلا يجب عليه الحج .

وإذا كان على الإنسان دين ، فحج دون أن يبالي بالدين ، أو الدائن ، فإن حجه مردود عليه وقد كان الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، يتشدد جداً في أداء الدين ، بل كان ، صلى الله عليه وسلم ، لا يصلي على المدين أبداً ، فإن كان على الميت دين ، قال :

«صلوا على صاحبكم» .

فإذا ما سدد دينه صلى عليه .

وما دام الحج لا يجب إلا عند الاستطاعة ، وما دام المدين غير مستطيع ، فالأولى بل الواجب عليه أداء الدين ، ثم الحج عند الاستطاعة .

الحج عن الغير :

روى أبو داود وابن ماجة وغيرهما ، أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، سمع رجلاً يقول :

«لبيك عن شبرمة» فقال له :

ومن شبرمة؟ قال :

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٩٧ .

أخ لي، أو قريب لي.

قال ﷺ: أحججت عن نفسك؟

قال: لا، قال:

«فحج عن نفسك، ثم عن شبرمة».

وروى الإمام مسلم بسنده عن بريدة، عن أبيه رضي الله عنهما:

أن امرأة أتت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأخذت تسأله عن مسائل، وكان من بينها أن قالت عن أمها:

«إنها لم تحج قط، ثم سألت: أفأحج عنها»؟

فقال ﷺ: «حجي عنها».

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن امرأة قالت:

يا رسول الله، إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يثبت على الراحلة أفأحج عنه؟

قال: «نعم»(١).

وعن لقيط بن عامر رضي الله عنه، أنه أتى النبي، صلى الله عليه وسلم، فقال:

إن أبي شيخ كبير، لا يستطيع الحج، ولا العمرة، ولا الظعن؟

قال: «حج عن أبيك واعتمر»(٢).

أداء النذر عن الغير:

عن ابن عباس رضي الله عنه، أن امرأة من جهينة جاءت إلى

(١) متفق عليه.
(٢) رواه أبو داود والترمذي، وقال حديث حسن صحيح.

النبي ﷺ، فقالت:

«إن أمي نذرت أن تحج ولم تحج، حتى ماتت، أفأحج عنها؟

قال؛ «نعم، حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته: اقضوا الله فالله أحق بالوفاء»(١).

يقول الإمام النووي:

«والجمهور على أن النيابة في الحج جائزة عن الميت».

ويقول:

«إن الجمهور على أن النيابة في الحج جائزة عن العاجز، الميئوس من برئه».

والوضع الطبيعي في هذه المسألة أنه ما دام السائل قد حج عن نفسه، فإنه يجوز له ـ ما دام قد أدى الفريضة ـ أن يحج عن غيره العاجز، أو الميت، ويجوز في النيابة في الحج أن يحج الرجل عن المرأة والمرأة عن الرجل.

ويقول الإمام النووي: قال الشافعي:

ويجوز الحج عن الميت، عن فرضه، ونذره، سواء أوصى به أم لا، ويجزىء عنه».

ومذهب الشافعي وغيره، أن ذلك واجب في تركته.

ويستوي في ذلك، أن ينوب في الحج عنه شخص في مكة، أو في المدينة، أو في إقليم آخر بعد أو قرب».

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

ولا حرج:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص، رضي الله عنه، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقف في حجة الوداع، فجعلوا يسألونه، فقال رجل.

لم أشعر، فحلقت قبل أن أذبح؟ قال:

«اذبح ولا حرج».

وجاء آخر فقال:

لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي، قال:

«ارم ولا حرج».

فما سئل يومئذ عن شيء قدم ولا أخر إلا قال:

«افعل ولا حرج»[1].

بعض ما لا يفعله المحرم:

عن عثمان بن عفان، رضي الله عنه، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم قال:

«لا ينكح المحرم، ولا ينكح، ولا يخطب»[2].

وعن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه في مصيدة الحمار الوحشي، وهو غير محرم، قال:

قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لأصحابه، وكانوا محرمين: «هل أحد أمره أو أشار إليه بشيء؟ قالوا: لا: قال: فكلوا ما بقي من لحمه».

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الإمام مسلم.

دواب يقتلن في الحل والحرم:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

«خمس من الدواب كلهن فواسق، يقتلن في الحل والحرم.

العقرب والحدأة، والغراب، والفأرة، والكلب العقور».

أولئك لهم نصيب مما كسبوا:

سأل رجل ابن عباس رضي الله عنهما فقال:

إني أكري نفسي إلى مكة، وقد زعم الناس أنه ليس لي حج، فقال:

بل أنت ممن قال الله فيهم:

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾«البقرة/٢٠٢».

وفي رواية: فقال:

فإذا فعلت المناسك فأنت حاج».

إذا بلغ الصبي:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

«أيما صبي حج، ثم بلغ الحنث فعليه أن يحج حجة أخرى.

وأيما عبد حج ثم أعتق، فعليه أن يحج حجة أخرى»[١].

---

(١) رواه ابن شيبة والبيهقي ورجاله ثقات.

المحلقون والمقصرون:

روى البخاري ومسلم رضي الله عنهما أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم قال:

«اللهم ارحم المحلقين.

قالوا: والمقصرين يا رسول الله، قال في الثالثة: والمقصرين»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال:

«ليس على النساء حلق وإنما يقصرن»(٢).

يبعث ملبياً:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

بينا رجل واقف مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بعرفة إذ وقع عن راحلته فأقصعته، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

«اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه بثوبيه، ولا تخمروا رأسه، ولا تحنطوه، فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً»(٣).

وفي رواية لهم:

أن رجلاً كان مع النبي، صلى الله عليه وسلم، فوقصته ناقته وهو محرم، فمات فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم:

«اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبيه، ولا تمسوه بطيب، ولا

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه أبو داود بإسناد حسن.

(٣) «وأقصعته ناقته» معناه رمته ناقته فكسرت عنقه، وكذلك فرقصته.

تخمروا رأسه، فإنه يبعث يوم القيامة ملبياً».

وفي رواية لمسلم:

فأمرهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن يغسلوه بماء وسدر، وأن يكشفوا وجهه، حسبته قال: «ورأسه، فإنه يبعث وهو يهلل».

إذا حاضت المرأة قبل الطواف:

عن عائشة رضي الله عنها قالت:

«خرجنا مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لا نذكر إلاّ الحج، حتى جئنا سرف، فطمثت فدخل عليّ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأنا أبكي، فقال: ما يبكيك؟ فقلت:

والله لوددت أني لم أكن خرجت هذا العام.

قال: مالك؟ لعلك نفست؟

قلت: نعم.

قال: نعم.

قال: هذا شيء كتبه الله على بنات آدم، افعلي ما يفعل الحاج، غير أن لا تطوفي بالبيت حتى تطهري..»

قالت: فلما كان يوم النحر طهرت، فأمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأفضت.

قالت: فأتينا بلحم بقر فقلت:

ـ ما هذا؟

قالوا:

«أهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن نسائه بقرة».

الحج وغفران الذنوب

روى الشيخان بسندهما عن أبي هريرة، رضي الله عنه قال:

سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم يقول:

«من حج فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه».

وروى الشيخان بسندهما عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم قال:

«العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة».

والحج المبرور هو الحج الذي يتقبله الله سبحانه، والحج الذي يتقبله الله سبحانه، هو الحج الذي توفر فيه الإخلاص.

ويبدأ توفر الإخلاص بالنية نفسها، فَنِيَّةُ الحج: لا بد أن تكون خالصة لله سبحانه، فلا يعتبر الإنسان الحج دعاية لنفسه، أو رحلة سياحية للمتعة، أو رحلة يراد بها غير وجه الله سبحانه بأي وضع من الأوضاع.

ولا بد أن يصاحب الإخلاص كل أعمال الحج، ومن أول هذه الأعمال: التوبة الخالصة النصوح، التوبة التي تجب ما قبلها من سيئات ومعاصي، لأنها إقلاع بات عن الذنوب والآثام، وندم باك على حياة مضت، لم يرض الله سبحانه، عما شابها من سيئات، وعزم مصمم على الطهر الطاهر النقي بتوفيق الله، فيما يستقبل من حياة تغير مجراها من خضوع لهوى النفس ونزعات الشيطان، إلى خضوع للخير، ومتابعة للرحمن.

ويسجل كل ذلك بلبس الملابس البيضاء النقية بعد الاستحمام

تطهيراً للظاهر، ليكون الصفاء شكلاً ومعنى، وتكون الطهارة ظاهرة باطنة.

ويسجل ذلك كله نطقاً بلسانه كما سجله عملاً بجوارحه، وعزماً بقلبه، فيعاهد الله على الاستجابة له فيما أمر، وعلى الاستجابة له فيما نهى، وعلى أن يكون له وحده قائلاً سراً وجهراً:

«لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

هذا العهد يعلنه إذا كان في جمع من الناس ويعلنه إذا كان منفرداً.

إنه يعلنه إذا التقى بصديق، ويعلنه إذا فارق صديقاً.

يعلنه إذا علا شرفاً، ويعلنه إذا هبط وادياً:

إنه الشعار، والطابع، والسمة، أياماً عدة، وذلك: من أجل أن يصير ممكناً في النفس، فينقلب من تطبع إلى طابع، ومن تخلق إلى خلق، ومن تكلف إلى شيء محبوب.

وبعد: فإن أعمال الحج كلها، إنما تهدف إلى تحقيق الاستجابة لله ولرسوله، فالحج إلى داخل البيت الحرام، يعلن أيضاً الاستجابة بصورة أخرى، أنه يبدأ الدخول بقوله:

«باسم الله، وبالله، ومن الله، وإلى الله، وفي سبيل الله، وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم».

وليس الطواف نفسه إلا محاولة لإعلان استجابة بصورة ثالثة، وذلك أن الطائف بالبيت يرجو بطوافه رضاء رب البيت ومغفرته، وهو يعاهد الله بطوافه، أن يكون عند ما أحب الله، وأن يكون دائماً في مرضاته، فإذا ما تحققت الاستجابة، تحقق الحج المبرور، وظفر الإنسان بالجزاء وهو مغفرة الذنوب ودخول الجنة.

الحج يغسل الذنوب

والحج ـ إذن ـ يحدث من غير شك تغييراً في الإنسان.

إن من حج تزداد أحواله ـ على حد تعبير بعضهم ـ إنها تزداد من غير شك خيراً، وتزداد نوراً، وتزداد إشراقاً، وصفاء، وشفافية، وإن هذه التلبية التي ينطق بها الحاج في كل لحظة، وإن هذه المناسك التي تؤدي، وإن هذه الذكريات التي تمر بالذهن، وهذا التجرد الكامل لله، سبحانه وتعالى، وهذا الاتجاه إليه بالكيان الإنساني كله. . . إن كل هذا نتيجته الخير والهداية.

وحتى ولو فرضنا أن الحاج لم يؤذ المناسك على الوجه الأكمل، ولا على الطريقة المثلى، وإنما أداها على وجه قريب من ذلك، فإن حجه يحدث فيه تغييراً إلى الأحسن والأمثل إن شاء الله تعالى.

إن الحجاج وفد الله وزواره، دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم، وحق على رب البيت أن يكرم زائره.

«جزاء الحج المبرور»

روى الإمام البخاري والإمام مسلم وغيرهما بسندهما عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«العمرة إلى العمرة، كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»[1].

وكيف يكون الحج كافياً لدخول الجنة؟

---

(١) «الحج يغسل الذنوب كما يغسل الماء الدرن».

إن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لم يقل الحج «ليس له جزاء إلا الجنة» وإنما قال: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة».

والمسألة إذن هي تفسير الحج المبرور والحج المبرور. من أفضل الأعمال، فقد روى الإمام البخاري والإمام مسلم بسندهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم سئل عن أفضل الأعمال، فقال: الإيمان بالله، قيل ثم ماذا؟ قال:

الجهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا؟

قال: حج مبرور.

ومن تفسير الحج المبرور نقول: إن الله سبحانه وتعالى يقول:
﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

ومن شروط الحج المبرور إذن الانتهاء من آثام اللسان التي تتلخص في الرفث والجدال، أو الكلام العابث والكلام المشاحن، وفي الانتهاء عن آثام الفعل التي عبر الله عنها بالفسوق، وهذا المعنى هو ما رواه الإمام عبد بن حميد ـ بسنده ـ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده، غفر له ما تقدم من ذنبه».

فالانتهاء من الرفث والفسوق والجدال هو سلامة المسلمين من لسان الحاج وجوارحه، وفضلاً عن هذا فإن أعمال الحج تبدأ أول ما

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

تبدأ بالتوبة الخالصة النصوح.

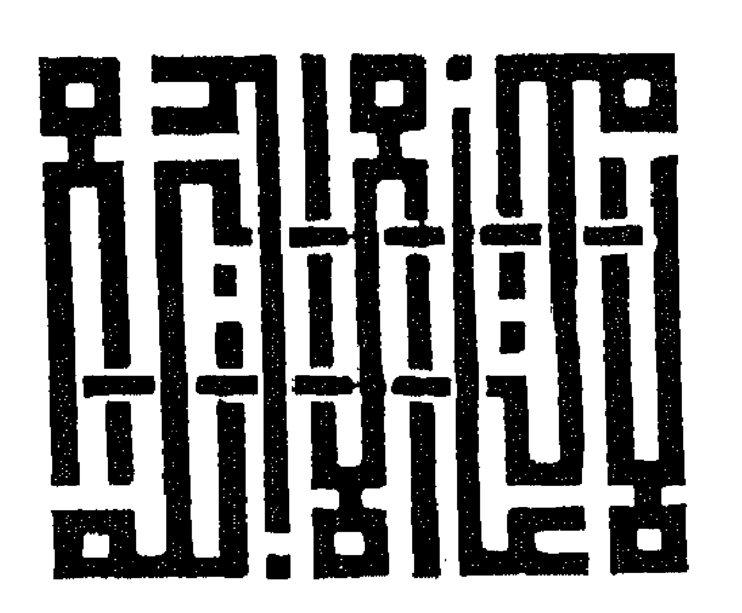
إنها تبدأ بالندم على ما فات من معاصي، وبالعزم المصمم، العزم الذي لا تزعزعه الأعاصير، على أن لا يأتي الذنب في المستقبل.

إنها تبدأ بالنية المؤكدة على أن يستقبل حياة يتزود فيها بالتقوى لينال رضوان الله . . . وما دام الأمر كذلك، فإنه يدخل في نطاق من يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم حسبما يروي الإمام البخاري والإمام مسلم بسندهما عن أبي هريرة رضي الله عنه:

«من حج فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه».

الفصل التاسع





وفي نهاية الحديث عن الحج نذكر حجة النبي، صلى الله عليه وسلم، تبركاً بها، وتلخيصاً لما سبق، وإيجازاً لما مر مفصلاً، وقد كانت هذه الحجة في السنة العاشرة للهجرة، وسميت حجة الوداع. . أما سبب هذه التسمية، فقد رواه الإمام البخاري في صحيحه، فقال:

«وقال هشام بن الغاز، أخبرني نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: وقف النبي ﷺ يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج بها، وقال: هذا يوم الحج الأكبر فطفق النبي، صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن خطب في الناس ـ يقول:

«اللهم اشهد، وودع الناس، فقالوا: هذه حجة الوداع».

هذا سبب التسمية ولقد روى الإمام مسلم في صحيحه هذه الحجة في شيء من الترتيب والتفصيل، إنه يقول:

حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، وإسحاق بن إبراهيم جميعاً عن حاتم، قال أبو بكر: حدثنا حاتم بن إسماعيل المدني، عن جعفر بن محمد، عن أبيه قال:

دخلنا على جابر بن عبد اللّه، فسأل عن القوم حتى انتهى إليّ فقلت:

أنا محمد بن علي بن حسين.
فقال مرحباً بك يا ابن أخي، سل عما شئت؟
فقلت أخبرني عن حجة رسول الله، صلى الله عليه وسلم؟
فقال بيده، فعقد تسعاً فقال:

إن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مكث تسع سنين[١] لم يحج، ثم أذن[٢] في الناس في العاشرة، أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حاج، فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله، صلى الله عليه وسلم، ويعمل مثل عمله، فخرجنا معه، حتى أتينا ذا الحليفة فولدت أسماء بنت عميس محمد بن أبي بكر، فأرسلت إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كيف أصنع؟.

قال: اغتسلي واستثفري[٣] بثوب واحرمي.

فصلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم في المسجد، ثم ركب القصواء[٤]، حتى إذا استوت به ناقته على البيداء[٥] نظرت إلى مد[٦] بصري بين يديه، من راكب، وماش، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك، ورسول الله، صلى الله عليه وسلم،

---

(١) أي في المدينة.
(٢) اعلمهم بذلك وأشاعه بينهم.
(٣) الاستثفار: أن تشد في وسطها شيئاً، وتأخذ خرقة عريضة تجعلها على محل الدلم، وتشد طرفيها من قدامها ومن ورائها في ذلك المشدود في وسطها.
(٤) اسم الناقة.
(٥) الصحراء.
(٦) آخر.

بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله وما عمل به من شيء عملنا به.

فأهل بالتوحيد: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك».

وأهل الناس بهذا الذي يهلون به، فلم يزد رسول الله، صلى الله عليه وسلم عليهم شيئاً منه، ولزم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تلبيته، قال جابر رضي الله عنه:

لسنا ننوي إلا الحج، لسنا نعرف العمرة، حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن، فرمل ثلاثاً(١)، ومشى أربعاً، ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام، فقرأ:

﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾(٢).

فجعل المقام بينه وبين البيت فكان أبي يقول:

ـ ولا أعلمه ذكره إلا عن النبي ﷺ، كان يقرأ في الركعتين:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

و﴿قل يا أيها الكافرون﴾.

ثم رجع إلى الركن فاستلمه، ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ:

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾(٣).

---

(١) رمل: أي أسرع.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥٨.

أبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا، فترقى[١] عليه حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة، فوحد الله وكبره وقال:

«لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.

لا إله إلاّ الله، وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده».

ثم دعا بين ذلك.. قال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة حتى إذا انصبت[٢] قدماه في قدم الوادي، سعى حتى إذا صعدنا مشى، حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا، حتى إذا كان آخر طوافه على المروة.. فقال:

لو أني استقبلت من أمري ما استدبرت، لم أسق الهدي، وجعلتها عمرة، فمن كان منكم ليس معه هدي، فليحل، وليجعلها عمرة فقام سراقة بن مالك بن جعشم فقال:

يا رسول الله: ألعامنا هذا، أم لأبد؟.

فشبك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أصابعه واحدة في الأخرى وقال:

«دخلت العمرة في الحج مرتين، لا.. بل لأبد أبد».

وقدم عليّ من اليمين ببدن النبي، صلى الله عليه وسلم فوجد فاطمة رضي الله عنها، ممن حل، ولبست ثياباً صبيغاً[٣]، واكتحلت فأنكر ذلك عليها، فقالت:

---

(١) ترقى: صعد.
(٢) أي انحدرت.
(٣) أي مصبوغة.

إن أبي أمرني بهذا. . قال فكان عليّ يقول بالعراق:

فذهبت إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، محرشاً[1] على فاطمة للذي صنعت، مستفتياً الرسول ﷺ فيما ذكرت عنه، فأخبرته أني أنكرت ذلك عليها، فقال:

صدقت. صدقت، ماذا قلت حين فرضت الحج؟ قال قلت:

اللهم إني أهل بما أهل به رسولك.

قال: فإن معي الهدي فلا تحل.

قال: فكان جماعة الهدي الذي قدم به عليّ من اليمن، والذي أتى به النبي صلى الله عليه وسلم مائة. قال:

فحلق الناس كلهم وقصروا إلا النبي ﷺ ومن كان معه هدي[2]، فلما كان يوم التروية، توجهوا إلى منى، فأهلوا بالحج، وركب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فصلى بها الظهر. والعصر، والمغرب، والعشاء، والفجر، ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، وأمر بقبة[3] من شعر تضرب له بنمرة[4]، فسار رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولا تشك قريش إلا أنه واقف عند المشعر الحرام[5]، كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز[6] رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها حتى إذا زاغت[7]

(١) ذاكراً ما يقتضي عتابها ومقوماً عليها.
(٢) ليبقى لهم شعر يحلق في الحج.
(٣) أي خيمة كالقبة.
(٤) مكان معروف بجنب عرفات.
(٥) جبل بالمزدلفة.
(٦) جاوز المشعر ومر به ولم يقف.
(٧) مالت إلى جهة الغرب.

الشمس أمر بالقصواء فرحلت له فأتى[1] بطن الوادي، فخطب الناس وقال:

إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية، تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعاً في بني سعد، فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله.

ولكم عليهن أن لا يوطئن[2] فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح.

ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به:

كتاب الله..

وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا:

نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت؛ فقال باصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء، وينكتها[3] إلى الناس:

«اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد ثلاث مرات».

---

(١) وضعت عليها الرحل وهيئت للركوب.

(٢) أي لا يستقبلن وينفردن بالرجال أو لا يأذن بالدخول لأحد تكرهون دخوله رجلاً كان أو امرأة.

(٣) أي يقلبها ويردها إلى الناس مشيراً إليهم.

ثم أذن، ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يصل بينهما شيئاً، ثم ركب رسـول الله ﷺ فجعـل نـاقته القصـواء إلى الصخرات، وجعل حبل[1] المشاة بين يديه، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلاً، حتى غاب القرص. . وأردف أسامة خلفه. . ودفع رسـول الله ﷺ، وقد شنق[2] للقصـواء الزمام، حتى أن رأسها ليصيب مورك[3] رحلـه، ويقول بيده اليمنى:

«أيها الناس! السكينة السكينة»[4]. كلمـا أتى جبلاً[5] من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد، واقامتين، ولم يسبح[6] بينهما شيئاً، ثم اضطجع رسـول الله، صلى الله عليـه وسلم، حتى طلع الفجر، وصلى الفجر حتى تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء، حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة فدعاه وكبره، وهلله، ووحـده، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس وأردف الفضل بن عباس، وكان رجلاً حسن الشعر، أبيض وسيماً، فلما دفع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مرت به ظعن[7] يجرين، فطفق الفضل ينظر إليهن، فوضع رسول الله ﷺ، يده على وجه الفضل، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر، فحول رسول الله ﷺ يده من الشق الآخر على وجه الفضل، يصرف وجهه من الشق الآخر ينظر، حتى أتى بطن محسر، فحرك قليلاً،

---

(١) مكان اجتماع غير الراكبين. ويروى جبل المشاة أي طريقهم.
(٢) شنق: أي ضيق وضم.
(٣) ما تقاد به.
(٤) أي ألزموا الرفق والطمأنينة.
(٥) أراد كلما أتى تلا لطيفاً من الرمل الضخم.
(٦) أي يصل.
(٧) أي نساء.

ثم سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى[1] حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة، فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخذف[2] رمى من بطن الوادي، ثم انصرف إلى المنحر، فنحر ثلاثاً وستين بيده، ثم أعطى علياً فنحر ما غبر[3] وأشركه في هديه، ثم أمر من كل بدنة ببضعة[4] فجعلت في قدر فطبخت فأكلا من لحمها، وشربا من مرقها.. ثم ركب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأفاض إلى البيت[5]، فصلى بمكة الظهر، فأتى بني عبد المطلب يسقون على زمزم فقال:

«انـزعوا[6] بني عبـد المـطلب، فلولا أن يغلبكم النـاس على سقايتكم لنزعت معكم».

فناولوه دلوا فشرب منه.

وعند هذا ينتهي ما رواه الإمام مسلم من حجة رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

---

(١) هي جمرة العقبة وهي التي عند الشجرة.
(٢) وهو نحو حبة الباقلاء.
(٣) ما بقي وهو تمام لمائة.
(٤) بفتح الباء: أي قطعة.
(٥) المراد: أقبل إلى البيت وطاف طواف الإفاضة.
(٦) استقوا وانزعوها بالحبال وكانوا يغرفون الماء من زمزم يملأون به الحياض ليشرب الناس.

الفصل العاشر

المدينة المنورة


وأما بنعمة ربك فحدث

كان اسمها يثرب، ولو لم يهاجر رسول الله ﷺ، ولو لم يدخلها الإسلام، لبقي اسمها كما كان عبر التاريخ، فلما أضاءت أرجاؤها بنور رسول الله صلى الله عليه وسلم، سميت «المدينة المنورة».

ومن أسمائها:

١ ـ طابة: وفي الصحيح: إن الله سمى المدينة طابة. فعن جابر بن سمرة فيما رواه الإمام مسلم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى سمى المدينة طابة».

٢ ـ طيبة: سماها به رسول الله ﷺ، وهما من الطيب أي الرائحة الحسنة، والطاب والطيب لغتان بمعنى.

٣ ـ طيبة: بتشديد الياء.

٤ ـ جابرة.

٥ ـ الحبيبة: حكاه ابن خالويه.

٦ ـ دار الهجرة.

٧ ـ الإيمان: قال ابن أبي خيثمة: الإيمان من أسمائها.

وقد ذكر لها صاحب «أعلام الساجد» أكثر من عشرين اسماً، وهذه الأسماء تبين زوايا من خصائص المدينة ومن فضلها.

ومن فضائل المدينة نذكر ما يلي:

في حديث حسن يرويه الإمام الترمذي بسنده، عن ابن عمر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت، فإنه لن يموت بها أحد إلا كنت له شفيعاً يوم القيامة».

وقال صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان:

«لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد:

المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى».

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة:

«صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام».

وروى الطبراني في معجمه الأوسط، بسنده عن أنس بن مالك قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«من صلى في مسجدي أربعين صلاة لا تفوته صلاة كتبت له براءة من النار، ونجاة يوم القيامة».

وفي الصحيح عن ابن عباس قال:

«كان رسول الله ﷺ، يأتي مسجد قباء راكباً وماشياً، فيصلي فيه ركعتين».

وفي رواية: «كان يأتيه كل سبت، ويستحب أن يكون ذلك»[1].

وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال:

«مر بي عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري قال: قلت له:

كيف سمعت أباك يذكر في المسجد الذي أسس على التقوى؟.

قال: قال أبي: دخلت على رسول الله ﷺ، في بيت بعض نسائه، فقلت: يا رسول الله: أي المسجدين الذي أسس على التقوى؟ قال: فأخذ كفاً من حصباء فضرب به الأرض، ثم قال:

هو مسجدكم هذا، «لمسجد المدينة»، قال: فقلت:

أشهد أني سمعت أباك هكذا يذكره[2].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه وغيره:

«من صبر على لأواء المدينة وشدتها، كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة».

وعن عامر بن سعد عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إني أحرم ما بين لابتي المدينة، أن يقطع عضاها، أو يقتل صيدها».

وقال: «المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون».

لا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه، ولا

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.
(٢) رواه مسلم في صحيحه.

يثبت أحد على لأوائها وجهدها إلا كنت له شفيعاً، أو شهيداً يوم القيامة[1].

وفي الصحيح: «ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة».

وفي رواية للطبراني: «ما بين حجرتي ومصلاي».

ومن المشهور: «ان المدينة تنفي خبثها، وتنفح طيبها. وأنه لا يريد أحد أهلها بسوء إلا أذابه الله في النار، ذوب الرصاص، أو ذوب الملح في الإناء».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«يأتي على الناس زمان يدعو الرجل ابن عمه وقريبه، هلم إلى الرخاء، هلم إلى الرخاء، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون».

والذي نفسي بيده، لا يخرج منهم أحد رغبة عنها، إلا أخلف الله فيها خيراً منه، ألا إن المدينة كالكير تخرج الخبيث، لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها كما ينفي الكير خبث الحديد»[1].

وانظر إلى هذه البصائر المستنيرة التي عرفت للمدينة فضلها فقدرتها:

انظر إلى الإمام مالك وموقفه منها:

روى عن مالك رضي الله عنه أنه كان لا يركب بالمدينة بغلة، فقيل له في ذلك؟.

فقال: «لا أطأ راكباً مكاناً وطئه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول:

---

(١)، (٢) رواه الإمام مسلم.

«حرمة الرسول ﷺ.. حياً وميتاً سواء».

وقد قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾[1].

ويقول صاحب اعلام الساجد:

يستحب الغسل لدخول المدينة، قاله أبو بكر الخفاف من قدماء أصحابنا في كتاب الخصال ـ وصرح به النووي في مناسكه أيضاً.

ومن أجل ما يوضع في ميزان فضل المدينة ما يرويه ابن أبي خيثمة في تاريخه الكبير من مالك من أن المدائن كلها افتتحت بالسيف، والمدينة افتتحت بالإيمان.

وعن سفيان بن أبي زهير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«يفتح الشام: فيخرج من المدينة قوم بأهليهم يبسون والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون.

ثم يفتح اليمن: فيخرج من المدينة قوم بأهليهم يبسون، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون.

ثم يفتح العراق: فيخرج من المدينة قوم بأهليهم يبسون، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»[2].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «على أنقاب المدينة

---

(١) سورة الحجرات: الآية: ٢.

(٢) رواه مسلم.

ملائكة، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال»[١].

ويقول صاحب «اعلام الساجد».

ينبغي للزائر الغريب أن يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم كلما دخل المسجد أو خرج.

اللهم بارك لهم:

عن أنس بن مالك يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي طلحة:

«التمس لي غلاماً من غلمانكم يخدمني».

فخرج بي أبو طلحة يردفني وراءه، فكنت أخدم رسول الله ﷺ كلما نزل.

وقال في الحديث:

«ثم أقبل حتى إذا بدا له أحد، قال: «هذا جميل يحبنا ونحبه». فلما أشرف على المدينة قال:

«اللهم إني أحرم ما بين جبليها مثل ما حرم به إبراهيم مكة. اللهم بارك لهم في مدهم وصاعهم»[٢].

وعن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«اللهم بارك لهم في مكيالهم، وبارك لهم في صاعهم، وبارك لهم في مدهم»[٣].

---

(١) رواه الإمام مسلم.
(٢) رواه الإمام مسلم.
(٣) رواه الإمام مسلم في صحيحه.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم:

«اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما بمكة من البركة»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه قال:

كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى النبي ﷺ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال:

«اللهم بارك لنا في ثمرنا، وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدنا.

اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك، وإني عبدك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وإني أدعوك للمدينة، بمثل ما دعاك لمكة، ومثله معه، قال:

ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر»[2].

حرمة المدينة:

عن عبد اللّه بن زيد بن عاصم، رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

«إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها، وإني حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإني دعوت في صاعها ومدها بمثل ما دعا به إبراهيم لأهل مكة»[3].

وعن نافع بن جبير أن مروان بن الحكم خطب الناس فذكر مكة

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم في صحيحه.
(٣) متفق عليه.

وأهلها، وحرمتها، ولم يذكر المدينة وأهلها وحرمتها، فناداه رافع بن خديج فقال:

مالي أسمعك ذكرت مكة وأهلها وحرمتها، ولم تذكر المدينة وأهلها وحرمتها، وقد حرم رسول الله ﷺ ما بين لابتيها، وذلك عندنا في أديم خولاني، إن شئت أقرأتكه؟.

قال: فسكت مروان، ثم قال:

قد سمعت بعض ذلك.

وعن إبراهيم التيمي عن أبيه قال:

خطبنا علي بن أبي طالب فقال:

من زعم أن عندنا شيئاً نقرؤه إلا كتاب الله، وهذه الصحيفة، قال:

وصحيفة معلقة في قراب سيفه - فقد كذب - فيها: أسنان الإبل، وأشياء من الجراحات، وفيها قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«المدينة حرام ما بين عير إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثاً، أو آوى محدثاً، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً. ومن ادعى إلى غير أبيه، أو انتمى إلى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً»[1].

وعن عاصم قال: قلت لأنس بن مالك:

قال: نعم، ما بين كذا إلى كذا، فمن أحدث فيها حدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً.

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه.

قال: فقال ابن أنس:
أو آوى محدثاً[1].

الوصول إلى المدينة:

فإذا ما وصل الحاج إلى المدينة يدخلها قائلاً:

باسم الله، وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

﴿رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾[2].

ويتجه إلى المسجد فيصلي ركعتين.

ثم يأتي قبر النبي ﷺ، فيقف عند وجهه، وذلك بأن يستدبر القبلة ويستقبل جدار القبر على نحو من أربعة أذرع..

وليس من السنة أن يمس الجدار، ولا أن يقبله، بل الوقوف من بعد أقرب للاحترام، فيقف ويقول:

السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا نبي الله، السلام عليك يا أمين الله، السلام عليك يا حبيب الله، السلام عليك يا صفوة الله، السلام عليك يا خيرة الله، السلام عليك يا أحمد، السلام عليك يا محمد، السلام عليك يا أبا القاسم، السلام عليك يا ماحي، السلام عليك يا عاقب، السلام عليك يا نذير، السلام عليك يا طهر، السلام عليك يا طاهر، السلام عليك يا أكرم ولد آدم، السلام عليك يا سيد المرسلين، السلام عليك يا خاتم النبيين، السلام عليك يا رسول الله رب العالمين، السلام عليك يا قائد الخير، السلام عليك يا فاتح البر،

---

(١) رواه الإمام مسلم في صحيحه.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٠.

السلام عليك يا نبي الرحمة، السلام عليك يا هادي الأمة، السلام عليك يا قائد الغر المحجلين، السلام عليك وعلى أهل بيتك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، السلام عليك وعلى أصحابك الطيبين، وعلى أزواجك الطاهرات أمهات المؤمنين، جزاك الله أفضل ما جزى نبياً عن قومه، ورسولاً عن أمته، وصلى عليك كلما ذكرك الذاكرون، وكلما غفل عن ذكرك الغافلون، وصلى عليك في الأولين والآخرين أفضل وأكمل وأعلى وأجل وأطيب وأطهر ما صلى على أحد من خلقه، كما استنقذنا بك من الضلالة، وبصرنا بك من العماية، وهدانا بك من الجهالة، أشهد أن لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنك عبده ورسوله، وأمينه وصفيه، وخيرته من خلقه، وأشهد أنك قد بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، وجاهدت عدوك، وهديت أمتك، وعبدت ربك حتى أتاك اليقين، فصلى الله عليك وعلى أهل بيتك الطيبين، وسلم وشرف، وكرم وعظم، وإن كان قد أوصى بتبليغ سلام فيقول.

السلام عليك من فلان، السلام عليك من فلان[1].

ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه ـ لأن رأسه عند قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورأس عمر رضي الله عنه عند منكب أبي بكر رضي الله عنه.

ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على الفاروق عمر رضي الله عنه ويقول:

السلام عليكما يا وزيري رسول الله ﷺ، والمعاونين له على القيام بالدين ما دام حياً، والقائمين في أمته بعده بأمور الدين، تتبعان في ذلك

(١) رواه مسلم في صحيحه.

آثاره، وتعملان بسنّته، فجزاكما الله خير ما جزى وزير نبي عن دينه.

ثم يرجع فيقف عند رأس رسول الله ﷺ «بين القبر والاسطوانة اليوم، ويستقبل القبلة، وليحمد الله عز وجل، وليمجده، وليكثر من الصلاة على رسول الله ﷺ ثم يقول[1]:

«اللهم إنك قد قلت وقولك الحق»:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[2].

اللهم إنا قد سمعنا قولك، وأطعنا أمرك، وقصدنا نبيك، مستشفعين به إليك في ذنوبنا، وما أثقل ظهورنا من أوزارنا، تائبين من زللنا، معترفين بخطايانا وتقصيرنا، فتب اللهم علينا، وشفع نبيك هذا فينا، وارفعنا بمنزلته عندك، وحقه عليك، اللهم اغفر للمهاجرين والأنصار، واغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان.

اللهم لا تجعله آخر العهد من قبر نبيك، ومن حرمك يا أرحم الراحمين.

ثم يأتي الروضة فيصلي فيها ركعتين ويكثر من الدعاء ما استطاع، لقوله صلى الله عليه وسلم:

«ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري حوضي»[3]..

ثم إذا فرغ من أشغاله وعزم على الخروج من المدينة فالمستحب

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالي.
(٢) سورة النساء، الآية: ٦٤.
(٣) متفق عليه.

أن يأتي القبر الشريف، ويعيد دعاء الزيارة كما سبق، ويودع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويسأل الله عز وجل أن يرزقه العودة إليه، ويسأله السلامة في سفره، ثم يصلي ركعتين في الروضة الصغيرة[1].

فإذا خرج فليخرج رجله اليسرى أولاً، ثم اليمنى، وليقل:

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، ولا تجعله آخر العهد بنبيك، وحط أوزاري بزيارته، وأصحبني في سفري السلامة، ويسر رجوعي إلى أهلي ووطني سالماً يا أرحم الراحمين.

وليتصدق على جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قدر عليه. اهـ.

وقبل أن نختم هذا الفصل نذكر أن صاحب كتاب «الشامل» حكى الحكاية المشهورة عن العتبي قال:

«كنت جالساً عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فجاء أعرابي فقال:

«السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[2].

وقد جئتك مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه ... فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه ... فيه العفاف وفيه الجود والكرم

---

(١) إحياء علوم الدين.
(٢) سورة النساء، الآية: ٦٤.

ثم انصرف الأعرابي فغلبتني عيني فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقال:

«يا عتبي!.. الحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له».



خاتمة

في روحانية الحج
وفي السلوك بعد الحج

إن كلمة «الإسلام» التي هي عنوان على دين الله الخالد: تشعر في وضوح، بالهدف الذي أراده الله، سبحانه وتعالى، من رسالته التي لم يختلف جوهرها على مر العصور.

هذا الهدف هو: إسلام الوجه لله، والتسليم له، والدخول في رحابه.

وذلك بالنسبة للإنسان: كمال. وبالنسبة للمجتمع: أمن وطمأنينة.

وقد اختلفت وسائل الإسلام في قيادة الإنسان إلى إسلام الوجه لله وتعددت، نظراً لاختلاف طبائع الإنسان وتعددها، وما كانت العبادات في الإسلام على اختلاف ألوانها إلا وسائل لتزكية النفس، وكمال الإنسان، حتى يستأهل لمرضاة الله، وحتى يفلح بالقرب من الله، والانتساب إلى عبادة الرحمن»: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1].

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.

وإن من هذه العبادات الحج: إنه وسيلة من أسمى وسائل قيادة الإنسان إلى الله تعالى، وهو مجموعة رائعة من الرموز الروحية التي تنتهي - إذا أقيمت على وضعها الصحيح - بالمسلم إلى الدخول في المحيط الإلٓهي.

وتبدأ أعمال الحج - بتوفيق الله تعالى - بالاغتسال الظاهري، بالنظافة الجسمية.

فإذا ما تم ذلك: يتوب المسلم توبة خالصة نصوحاً، نادماً على ما فعل من آثام، مقلعاً عن الذنب، عازماً عزماً لا يلين، أن لا يعود إلى ذنب أبداً، متجهاً إلى الله بتوبته طالباً منه العون والتوفيق، راجياً مرضاته.

وتأكيداً لهذا التطهر الباطن، والتطهر الظاهر، يلبس ملابس الإحرام، بيضاء ناصعة: يلبسها على طبيعتها التي نسجت عليها دون أن تدخلها صنعة فتغير من معالمها، أو تبدل من أوضاعها.

إنه يلبها على الفطرة، وعلى النقاء تاركاً ما عساه أن يكون قد تلوث بالأخطاء من ملابس، ثم يسجل العزم المصمم على استمرار الطهر فيما يستقبل من أيام بهذه الكلمات التي تعبر عن الاستجابة الكاملة لله سبحانه وتعالى:

﴿لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك﴾.

إن هذه الاستجابة إلى الله سبحانه وتعالى؛ عهد منه إلى الله بالتزام إسلام الوجه له سبحانه، ويكرر هذا العهد في كل آونة: بقوله إذا صعد، وبقوله إذا نزل.

بقوله مصبحاً، وبقوله ممسياً، فيرتسم في فؤاده بأحرف من نور الإيمان، ومن سناء الهداية.

حتى إذا ما وصل إلى البيت الحرام، فإن من السنة: أن يبتدىء الدخول في المسجد الحرام بالتعبير عن الاستجابة إلى الله بصورة أخرى هي:

«بسم الله، وبالله، ومن الله، وإلى الله، وفي سبيل الله، وعلى ملة رسول الله، صلى الله عليه وسلم».

وهذه الكلمات في روحها، ومعناها: تلبية واستجابة.

ويبدأ الطواف:

يبدؤه ببسم الله، والله أكبر.

وما كان البيت ـ هيكلاً وبناءً ـ في يوم من الأيام المقصد الأخير للطائفين والعاكفين، والركع السجود، وإنما هدفهم الأول والأخير، رب البيت.

ويستلم الحجر الأسود، والحجر الأسود، إنما هو الحجر الذي بقي يتسم بطابع سيدنا إبراهيم الذي لم يكن يهودياً، ولا نصرانياً، ولكن كان حنيفاً مسلماً.

والذي تضرع إلى الله سبحانه وتعالى، أن يبعث في الجزيرة العربية رسولاً عربياً هادياً، ومزكياً فقال:

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(١).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.

وكان المسلم بهذا الاستلام لهذا الأثـر الإبراهيمي يعاهد الله على أن لا ينحرف عن الملة الحنيفية، وأن يكون على مر السنين تابعاً لهذا الرسول العربي الذي بعثه الله رحمة للعالمين.

إنه يطوف معلقاً قلبه وبصره وسمعه وكيانه كله برب البيت.

إنه يطوف لعل الستائر ترتفع، لعل الحجب تتكشف، لعل الأقنعة تزول، لعل الباب يفتح، لعل رب البيت يتفضل بالقبول، لعل الله يرضى!!!

إنه يطوف خاشعاً، خاضعاً، يدعو، ويتضرع لعله يشعر بنسمات الرضا، بنغمات الأنس، بكأس المحبة، بسلسبيل المعرفة:

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾(١).

ويذهب إلى السعي: يبتدىء من الصفا: أي من الصفاء من جديد ليزداد صفاء، وليزداد نوراً.

وهكذا من الصفاء إلى الري، ومن الري إلى الصفاء.

وفيوضات الله لا تنتهي، ومنحه سبحانه وتعالى: لا تحدها حدود.

إنه يسعى رحمة بنفسه، ويسعى ليكون رحمة في أسرته، وفي عشيرته، وفي وطنه، وفي العالم بأسره.

إنه يسعى لتصير له رحمة:

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾(٢).

* * *

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٢.

(٢) سورة الكهف: الآية: ١٠.

ويذهب إلى عرفات للتعرف على الله سبحانه وتعالى، وليقف متلقياً منه سبحانه رحمته.

والحج عرفة كما يقول الرسول، صلى الله عليه وسلم.

إنه تعرف على الله سبحانه وتعالى مصدر الخير، كل الخير، ومصدر النعمة، كل النعمة، ومصدر الكمال على المعنى الصحيح للكمال الإنساني.

إن الذي يتعرف على الله: يصبح من الكمال الإنساني في الذروة.

ولما كانت طريقة التعرف إلى الله في الحج: توبة نصوحاً واستجابة مخلصة، وطوافاً بالبيت في تضرع، وابتهالاً إلى رب البيت، وسياحة من الصفاء إلى الري، ومن الري يزداد إلى صفاء يصفو.

لما كانت كذلك: كانت تزكية للنفس.

فإذا ما تزكت النفس بكل ذلك يفيض الله سبحانه وتعالى عليها نوراً يعرفها به، فتتعرف عليه وتلتزمه. وتقف عنده وتنتهي إليه:

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ «النجم/٤٢».

وليس هناك منتهى دون الله سبحانه وتعالى، وكل ما دونه منتهى مزيف فاسد، أما المنتهى الحق: فهو الله سبحانه وتعالى:

﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[١].

وتنتهي أعمال الحج بالذهاب إلى منى، والمكث فيها لرجم الشيطان مصدر الشر: إبليس، مرة، ومرة، ومرة.

---

(١) سورة الممتحنة، الآية: ٤.

وما كان رجم إبليس إلا رجماً لعامل قوي من عوامل الإفساد والمعصية والإثم.

إن المسلم يرجمه مؤكداً بذلك الرجم: انه تخلص إلى الأبد من الشر، ومن المعاصي، ومن كل ما يغضب الله سبحانه وتعالى، وذلك هو العيد حقيقة، والبهجة والسعادة.

والعيد الإسلامي عقب الحج: إنما هو احتفال عام في الأمة الإسلامية كلها بمن انتهى بهم الحج إلى إسلام الوجه لله، إلى الطهر، إلى التزكية، إلى الصفاء..

إن العيد الأكبر، إنما هو حفل تكريم لمن استقام أمرهم على الجادة، لمن دخلوا بالحج في عبادة الرحمن، لمن أسلموا وجوههم لله سبحانه وتعالى، انه.. لمن أسلموا.

بعد الحج

عن أبي هريرة رضي الله عنه، فيما رواه البخاري ومسلم، قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم يقول:

«من حج فلم يرفث، ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه».

وعنه صلوات الله وسلامه عليه، قال:

«الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة».

والحج المبرور هو الذي لا يرتكب صاحبه فيه معصية.. وهذا الحديث الأخير مما اتفق عليه البخاري ومسلم أيضاً.

والواقع أنه من فضل الله على الأمة الإسلامية، أن جعل لها منافذ لتطهير النفس وتزكيتها حتى تنال رضاء الله وتنعم بثوابه.

ومن النوافذ الكبرى: الحج المبرور..

وليس من العسير على الإنسان أن يخلص وجهه لله في أيام معدودات، يصبح الإنسان بعدها من البراءة والطهر، كيوم ولدته أمه، خالصاً من الدنس، مبرأ من الآثام.

هذه التزكية، وهذا الطهر، يجب أن يستمر فيما يستقبله الحاج من عمره.. وإذا كان الله قد هيأ للمسلم هذه الفرصة الكبرى، ليصل بسببها إلى المستوى الملائكي في الطهر، فإنه على المسلم أن يحافظ عليها محافظة تامة..

إن الإنسان في مفتتح أعمال الحج يتوب إلى الله توبة نصوحاً، ويعاهده عهداً بعزم ألا ينقضه على أن يسير في حياته متبعاً الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

وهو بهذه التوبة يتطهر باطنياً، ويشفع التطهير الباطني بتطهير ظاهري.. وهو: غسل الإحرام.. ويعلن عن إخلاصه في الطهر الباطن، والطهر الظاهر، بالصورة الجميلة، صورة ملابس الإحرام نقية طاهرة، بيضاء صافية، خلت خلواً تاماً من الدنس والخبائث.. ويثبت كل ذلك بالشعار القوي الدائم في الحج:

«لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إن الحمد والنعمة لك، والملك لا شريك لك».

وهو ـ إذن ـ منذ البدء، يتطهر باطناً، ويتطهر ظاهراً بالقول، ويتطهر بالسلوك.

هذا الصفاء، وهذا الطهر، يجب أن يستمرا بعد الحج.. ويجب أن يدوما مدى الحياة.. والعهد الذي عاهد الله عليه من الإخلاص

والتقوى يجب أن يلتزمه طيلة حياته. يقول الله تعالى موجهاً المسلمين إلى التزام عهودهم:

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾[1].

أما هذه التي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً فإنها كل امرأة خرقاء، ناقصة العقل، تغزل طول يومها مثابرة دائبة، وتحكم غزلها، ثم تنقضه آخر النهار.

ومثل كل من يعاهد الله ثم لا يوفى بعهده، مثل هؤلاء النسوة الحمقاوات اللواتي ينقضن آخر اليوم ما غزلن في أوله.

على أن الإخلال بالعهد مع الناس، يعتبر عند الله من علامات النفاق.. فما بالك بالإخلال بالعهد الذي بين الإنسان وربه؟.

فعن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فيما روى البخاري ومسلم أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال:

«أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن: كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه فيما رواه الإمامان: البخاري ومسلم، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال:

«آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩١، ٩٢.

على أن هذا الذي يعاهد الله، ثم ينقض عهده، إنما يقول ما لا يفعل، وقد هدد الله سبحانه من يفعل ذلك، وتوعده ومقته:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ «الصف/ ٢».

أما إذا تزكى المسلم بالحج. ثم حافظ على هذه التزكية بعد الحج: فإنه ينال السعادة الحقة: إنه ينال سعادة الدنيا، ذلك أن الله سبحانه وتعالى، كفل لمن انضوى تحت لوائه، واهتدى بهديه واتقاه، طيب الحياة، يقول الله سبحانه:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾(١).

وقد تكفل سبحانه وتعالى بإخراج المتقي من كل ما يصادفه من المآزق، وبأن يرزقه من حيث يدري ومن حيث لا يدري:

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾(٢).

على أنه بمجرد الابتداء في السير إلى الله تبدأ رعاية الله غامرة عامة شاملة.

وهذا الابتداء في التوجه إلى الله سبحانه إنما يكون في صورة الاستغفار، والله سبحانه يقول:

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾(٣).

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٧.
(٢) سورة الطلاق، الآية: ٢، ٣.
(٣) سورة نوح، الآية: ١٠، ١٢.

ويقول تعالى، فيما قصه حكاية عن سيدنا هود عليه السلام:

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾(١).

هذه الرعاية من الله إنما هي في الدنيا بيد أن رعايته سبحانه لا تقتصر عليها وإنما تشملها، وتتعداها إلى رعاية أجل وأعظم، وهي رعايته سبحانه في الآخرة، لمن حافظ على عهده، وأوفى بعقده، يقول سبحانه وتعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾(٢).

وبعد: فإن أكرم الناس على الله، هو أتقاهم له سبحانه، والأتقى هو الذي تزكى ثم حافظ على التزكية، ولن يضيع الله أكرم الناس عليه، وكيف؟.

وهو سبحانه أكرم الأكرمين.

---

(١) سورة هود، الآية: ٥٢.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.

فهرس

